رواية

ركض الخائفين

الجوهرة الرمال



مكتبة | ٦٠٨

ركض الخائفين

© مركز الأدب العربي للنشر والتوزيع، ١٤٣٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الرمال، الجوهرة ركيب علي
ركض الخائفين. / الجوهرة ركيب علي بن الرمال - ط٢ - الدمام، ١٤٣٩هـ
... ص؛.. سم
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٢٥٢-٢٤-٦

١ - القصص العربية - السعودية أ. العنوان
ديوي ٨١٣، ٠٣٩٥٣١ ١٤٣٩/٩١٦٦

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٩١٦٦
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٢٥٢-٢٤-٦



مركز الأدب العربي للنشر و التوزيع
الموقع الإلكتروني :
www.daapd.com
@servicesbook
@Services_Book
@Services_Book
مركز الأدب العربي
adabarabic7
services_book@outlook.sa

للتواصل:
0597777444
لجنة النشر :

المملكة العربية السعودية- الدمام

لطلب اصدارات مركز الأدب العربي 0594447441

ركض الخائفين

مكتبة | ٦٠٨

الجوهرة الرمال
jo-alremal
joalremal

الطبعة الثانية
١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾

(سورة الحاقة آية ٢٠)

الإهداء

إلى معلمة اللغة العربية التي قالت لي يوماً (حسّني أسلوبك)

وتركت فجوة أحاول ردمها بالحرف والقراءة

شكراً جعلتِني أكتب بكل مرة أحاول بها البكاء

وعلمتِني أن خلف كل روح سقطت روحاً نخلقها نحن من جديد

ودون مساعدة أحد ..

«أنا حي مثلك، وأنا واقف الآن إلى جانبك؛ فأغمض عينيك والتفت ترَني أمامك».

جبران خليل جبران

دائماً عندما نفكر أن نكتب البداية نختار منتصف السطر ربما لأنّ ما قبل النقطة وبعد الفاصلة هو الشعور الذي ألفظه للمرة الأولى.

البدايات مكلفة جدّاً تحتاج أن نكون على قدر عال من الذوق والأناقة وأنا أنثى تحكمني الفوضى.. فوضى الكلام والمشاعر والأفكار.. ربما من المسيء أن أتحدث بهذه الطريقة عني وربما من الواجب أن أكون أكثر تجملاً حينما أقدم نفسي لكن عذري ذاك القلق الذي يجعلني أروح وأجيء وأنا متمددة بمكاني وعيناي وحدهما من تفعلان هذا بالسقف والأفكار تلتف حولي وكأنها اتخذت من رأسي مجرة فضائية تلتف حولها لتكتشفها عن بعد ولا تهبط عليها إلا بعد التيقن أنها صالحة لهذا..

ستائر غرفتي أجدها ترقص بغباء كلما حركها الهواء الوقت غير مناسب فرقصها هذا يزيد من توتري وأنا أحاول أن أهدأ الآن

أذكر أني أعدت تفعيل المنبه ثلاث مرات ودون غفوة..

رتبت كل شيء بجانب سريري

حذاء بحزام مطاطي تنفرج به أصابعي ويترك مساحة حرة بالمشي هذه المرة أردت أن يكون بديلاً عن الكعب الذي يلوي كاحلي بكل مرة أنتعله فيها على عجلة وأنسى أني أنثى لا بد أن تعد خطواتها وهي تمشي.. جعلته ملاصقاً لسريري جمعتهما وقلت لإحداهما إياك أن تضيعي وتختبئي عنوة وتجعليني أبحث عنك وألتف حول نفسي.. فلا وقت لهذا.

العباءة علقتها على زاوية السرير بالعمود الثالث لقد كان من الزاوية الأخرى فلا حاجة أن تخلق لي كابوساً أحتاج ليلتي كاملة ولنوم هادئ لقد عطرتها جيداً فغداً يومٌ مميز وسوف أحتضن أمي عند خروجي لا بد أن أكون ممتلئة بالعطر بدل الدموع..

حسناً.. لا بد أن تعرفوا جيداً لماذا تبكي الأمهات...

عندما تحتضن صغيرها بالدمع بعد المخاض.

وتبكي مرة أخرى بنفس الطريقة والاحتضان أيضاً بزواج هذا الصغير الذي كبر وقرر الانفصال عنها.

هي تشعر بهذا الانفصال وإن لم نقرر هذا..

عذراً والدي.. فلا أحد يشبه قلوب الأمهات..

لم أقرر الانفصال عنك يا أمي.. أنا فقط سألتحم بجسد الآخر أشاركه النبض والروح وأنجب منه قصيدة تعيش طويلاً.

وربما طفلاً سينفصل عني كما أفعل أنا بك الآن.

لم أقرر ولكنها سنة الحياة يا أمي هكذا سمعتها من عجائز الحي..

السنة التي أصبحت فرض عين ومن تجاوزته قالوا إنها فرض كفاية.. القوانين التي يخلقها البشر دائماً عرجاء.

النعاس يغتال عيني وأنا أثرثر كثيراً رحلة السهر طويلة.. ويكفي مزاحاً أيها الأرق، غرفتي خالية تماماً ما عاد هناك شيء أعلق عليه عيني لأنام كل شيء كان هنا قد انتقل منها وامتلأ بغرفة أخرى بمنزل بعيدٍ من هنا.. كل شيء ترك أثر صدى الأدراج وخزانة الملابس إلا

من ملابس أظنها لن تناسب مقاسي فيما بعد.. دائماً نترك الملابس إما الضيقة أو الفضفاضة وكأننا نخبر أنفسنا بأن العودة مستحيلة..

مكتبتي الممتلئة بالأوراق والرسومات بقيت كما هي وأيضاً زجاجة عطر بدون غطاء وبعض الشراشف المنضودة هناك ..

أنظر لحقيبة السفر التي جهزتها ولا أنوي السفر بالواقع هي أنيقة بما تحوي من عطر وملابس ناعمة وعلبة مكياج لأعيد به هندمة الألوان التي ستزول بعد ساعات قليلة.. بها عقد ماسي من غير الماس مصنوع من الكرستال اللامع فما عاد يفرق بينهما إلا من جرب الفرق والحمد لله لن يكون أحد المدعوين ممن جرب هذا.. سأجر معي هذه الحقيبة الجلدية بصباح الغد.

الثوب الأبيض معلق بداخل حقيبة أخرى من البلاستك الذي صنع بعناية ليليق أن يحفظ فستان الزفاف من أي شيء يعلق به.

لقد أخذ مساحة من جدار الغرفة أكبر مما توقعت أغمض عيني وأنا أتخيل رأسي معلقاً فوقه ومن غير هذا الكيس بالطبع.

بل بإكليلي الطويل المختار من الدانتيل المشجر وعليه فصوص متناثرة من الكريستال المبهج.

تنحسر أطرافه بين خصلات شعري والتاج لقد تحقق حلم الأميرة دون أن أكون أميرة..

لا أعرف هل لا تزال تلبس الأميرات التاج كما كنَّ بالسابق؟!

ثقيل جدّاً لقد اكتفيت بتجربته لمدة خمس دقائق ودعوت الله أن لا يحدث ثقباً برأسي.. لا بأس سأتدبر الأمر.. أقول لنفسي وأنا أغفو..

أمد يدي لأنظر لساعة المنبه وأتحقق أنها لن تغفو معي.. أنظر لرسالتي لماجد الذي لم يستلمها بعد.. أمتعض.. وأبتسم لأنه نام مبكراً ربما يكون هو المنبه الرابع.. وأقضي الوقت أقرأ كل ما سبق بهذه النافذة التي جمعت كل شجارنا والقليل من حبنا.. وأعيد الاستماع لكل التسجيلات الصوتية التي تركها وتركتها ومضينا بالنقاش من جديد.

هذه الرسائل التي تحتفظ بها المحادثات هي تجلب لك كل الذكريات تأخذك إلى الحدث ذاته لتعيشه وحدك بينما الطرف الآخر نائم وربما قد أزالها منذ لحظتها.. البعض لا يحتفظ بمثل هذه الرسائل

ويكتفي بما هو جديد.. لا أعرف لما أقرأها الآن.. وغداً سأكون بجانبه وربما أوبخه مرة أخرى لأنه لم يفعل مثل ما فعلت لقد فاته من البهجة الكثير ومن الألم أيضاً.

أدس نفسي بين وسائدي.. أنام بالعرض ومرة بالجهة المعاكسة. هذه الليلة الأخيرة التي أتمدد بها بكلي بهذه الطريقة العشوائية.

أغفو.. وكأني أنام للمرة الأخيرة..

جاء هذا الصباح متأخراً ولعلي أنا استعجلت قدومه.. أحاول النهوض أشعر بصداع يجرني كلما حاولت أن أفتح عينيّ.

أجاهد نفسي لأصحو.. هناك أشياء كثيرة سأفعلها مبكراً.. باقة الورد التي سأمسكها لا بد أن أنجزها.. أوه لو أن أحداً يذهب بدلاً عني.. لا لا أنا عنيدة بذوقي ثم أنا لا أحب اللون الأحمر للورد.. هذا اليوم لا مجال للمغامرات به..

لا أعرف ما الذي جعل حلم البارحة منجزاً لكل هذه الأشغال.. لقد فعلتها والورد كان مبهجاً وماجد كان معي وصوت أليسا وهي تغني (ليلة ألبس لك الأبيض) بأذني وكأني سأكملها الآن..

آخذ نفساً عميقاً وأشعر بثقل على صدري.

أسحب يدي بقوة لأرفعها ولا أقوى.. أقول بنفسي يكفيك نعاساً ورقاداً حتى أطرافك لا تزال خدرة.

قاومي فالماء الفاتر سينفض كل هذا ويجدد نشاطك.. يعيد لها حيويتها.

ولا أنسى الرغوة العطرية لتنعشني، فرائحة التراب متكدسة فوق أنفي ربما ليلة البارحة عصفت بعد نومي وتركت فوق كل رصيف توقيعها.. ونالت النوافذ حظها من هذا.

أحتاج أن أعطس بشدة لأدفع ما يسد أنفي ما قد تلبد فوقه، فتحت عينيّ بعد جهد مثقل.. وحاولت أن أزيح هذا الغطاء الملتف حولي بمعنى أصح الملتفة أنا به..

ربما تمدد البارحة جعل الشراشف تنمو من بين أضلعي وتخترق كتفي ورقبتي.. أشعر أن أناملي متفرقة أحاول جمعها لأجمع كف يدي لتكون قبيلة تخلصني من هذه اللفائف وتخرجني.

تهيأ لي للحظة أني وقعت عن السرير وأكملت غفوتي تحته، المكان ضيق جدّاً رائحة الخشب قريبة من أنفي.

السقف مطبق على رأسي.

جدران غرفتي ضاقت جدّاً لتضمني.. أهكذا تودعني..؟!

أسأل نفسي أهكذا تودعني وأعيدها مرة أخرى أهكذا تودعني!

وكأني بالأسئلة أجد مخرجاً من هنا لعل هذه الجدران تفك لحامها عني.

من أصابعي التي نزفت وهي تحفر خندقاً رطباً ولا تعرف إلى أين سيؤدي بها وبي وكأني أتبعها لتخلصني.

العرق ينفض من كل مسامة بجسدي وكأن غيمة أمطرت فوقه ولم تروني.. تركتني عطشى وأنهكتني..

يا رب..

أمي

ناديت بتشديد الياء وكسرها ناديت بصوت الذبيحة التي تلفظ آخر اسم تبقى بجوفها...

يا أمي

وبصوت الانكسار والرجاء ناديت

يا أبي

ودون تشديد لأنه دائماً قبل الشد يهرع لي..

بأسماء إخوتي ناديت وحتى خادمتنا (جوزلين) المسيحية التي لم تحبني يوماً ولم أحبها.

وكأن الكره خلق لأبادلها إياه.. بالواقع نحن من يخلق ويربي الكره بدواخلنا.. لا لسبب مقنع سوى أن نظرتها تستفزني وصوتها يخترق خلوتي.. لا تطرق الباب ودائماً تقف فوق رأسي لترعبني أشعر أحياناً أن لها قدرة خفية تجعلها تدخل من ثقب الباب أو تختفي خلف برواز الصورة..

أين قدراتها هذه أنا أحتاج من يسمعني.

من يمد يده ليسحبني!

المنبه للمرة الثالثة يصحو وهذه المرة لم يأخذ غفوة وكأنه يذكرني بكل المواعيد التي تنتظرني على حافة الوقت.

آخذ نفساً مرة أخرى.. نفساً مرتجفاً أغمض عينيَّ وأفتحهما.. السواد يحيط بي وكأن الكون أطفأ أنواره بعد حادثة زلزال لم أشعر بها.. وربما انهيار جرفني لداخل هذا الأنبوب الذي ينفد منه الهواء وصبري.

أنفاسي ترتجف ونبض قلبي يعلو وشعر رأسي ملاصق لوجهي ويملأ فمي كلما حاولت الصراخ..!

أغمضت عيني المتجعدة بالطين ومشطت عرق شفتيّ بأسناني وظللت قابضة عليها بكل قوة لعلي أشعر بوجع آخر يعيد لي ذاكرة تخلصني من هذا التكور وهذا الأنبوب.. من رائحة التراب والطين والدمع الجاف والعرق الذي رسم خطوطاً على صدري وأكتافي وبلل بقايا جسدي لدرجة أني صرت صالحة للتحلل بأي لحظة..

وجبة شهية للدود..

أشعر أن هناك قبيلة منها ينادي بعضها بعضا لتجتمع حولي تبدأ بالتهامي من أطراف أصابع قدمي ربما لا تستلذ بها يكفي حتى تصل لمنتصف ساقي..

أغمض عيني مرة أخرى ليس بتلك القوة التي سبقتها كانت هذه المرة بوهن .. لكن لم تكن لحظة الاستسلام..

شممت رائحة الأبواب والرصيف المقابل وكوني طفلة حلمها كبير وعيناها لم تتعديا الشارع الذي تسكنه..

تذكرت كم مرة تخايلت لأتجاوزه.. وتجاوزته بالفعل طفلة حافية القدمين تسير بشارع ممتد تنظر لوجوه الغرباء وتواصل قضم حلوى ذاب منتصفها بكف يدها.

لم أكن أخشى شيئاً ولا أعرف ماذا يعني ضياع.. كنت بالواقع أنوي العودة للبيت مرة أخرى لكن لم آبه بالوقت والزمن الذي سأعود به..

لم أخفْ غربة الشوارع ولا المباني، وحدهما قدماي من كانتا مستمتعتين بالجري حيث الطرق الممتدة..

أجد أمي دائماً أمامي وكأنها تشتم رائحتي وأين أكون.. تنظر لي بعين مغرورقة وتسحبني من يدي دون أن تلفظ كلمة واحدة ولا حتى تصرخ بوجهي، تعود بي للمنزل صامتة وتبكي..

أمي تبحث دائماً عني..

أين هي الآن..!

ما عدت أسمع للمنبه صوتاً

كم الساعة الآن..

أسأل نفسي.. ولا أجيبها أنا لا أخيب رجاءها بي ودائماً ما أجيب بالفعل يا أناي أنا لا أعرف كم تبقى من هذا النهار.

ما عدت أخشى فوات مواعيدي أنا فقط أخاف أن أكون متعفنة هنا..

وأعود للمحاولة من جديد.. لا بأس يا أنا اجمعي قواك مرة أخرى كل شيء رطب هنا هو عليك هين.

واصلت الحفر لا تسألني كيف بالواقع كنت أمد يديّ بصورة عشوائية ووحدها أطرافي البلهاء تفعل هذا..

أشعر أن هناك شيئاً يتساقط من بين أصابعي وأيقنت أن هناك سبيلاً للخروج من هذه الزاوية.

تذكرت وليست الذكرى هنا صالحة سوى أني أستمد قواي منها فلم (١٢٧ hours) لقصة حقيقية للمغامر آرون رالستون متسلق الجبال لم يتخيل أن مغامرته هذه سيمر من خلالها بالوجع ويشارف على الموت بعد أن سقطت عليه صخرة عملاقة لتحشر يده خلفها كنت من وجعه أتوجع حتى أني دعوت له بالخلاص ولازمني ألم بمعصمي لأيام كنت أشعر به وكأن ماحصل له سيحصل لي يوماً ولكن ليس بهذا السخف الذي أشعر به فجميعي عالق.

كيف لآرون رالستون أن يظلّ يحاول ويحاول ويبحث عن طريق للحياة بعد أن نفدت قواه للخلاص..

وعندما وقف الموت فوق رأسه.. قطع يده ليفر منه..!

وحادثة الدكتور أولفير ساكس بكتابه (أريد ساقاً أقف عليها) الكتاب الذي كنت أقرأه وأنا أرتجف كيف فر من الموت على قمة جبل بعد أن واجهه الخوف وبشاعة المنظر ليسقط متدحرجاً مرة ويهوي مرة أخرى ويسحب قدمه التي ما عادت له بعد أن كسرت وبقيت عالقة

جلد ولحم ودم.. كيف كان يفر بها من الليل وذئابه ويتكئ على وجعه وصراخه ليصل أطراف مدينة لا يعرفها وكل ما يرجوه أن يصادف أحداً..

أحتاج أن أصادف أحداً.. أم أحتاج أن أبتر أحد أطرافي لأفر خارجاً..؟!

بت أتفحص جسدي وأنادي على أطرافي الباردة من منكم يريد الخلاص فليتبعني

ومن منكم على قيد الموت لأبتره هنا!

صرت أصرخ وكأنها تسمعني

أصرخ وأشعر بانتفاضتها

حتى يداي صارتا أقوى الآن

وتحفران بطريقة هستيرية لتتخلصا نفسيهما من البتر والهلاك..

أنا حرة الآن لقد نجوت مني بأعجوبة

أنا حرة الآن..

حرة بما يكفي لأحمل كل أطرافي معي وكأنها الشيء الوحيد الذي نجوت به مني.. نجوت نعم لا أعرف كم استغرقت بالحفر ولا بالجنون المتعب لأصل هنا أخيراً محررة أجلس على حافة هذا الشيء ولا أعرفه.. لم أرفع رأسي بعد لأكتشف أين أنا.. كنت أهدئ من روعي وأبشرني بالخلاص.. أضحك بثغر باكٍ لا أمسح دمعي بالواقع شعر رأسي الملتصق بوجهي تكفل بهذا..

عشوائية، مرتبكة، ثائرة ومتوجعة.. تناقض يجعلني أرتجف لا أميز من حواسي شيئاً.. فأصبحت أسمع بعيني وأتكلم من صدري وأمشي على يديّ.. أتوكأ على أطراف أربعة كقطة مذعورة تفر بحريتها..

وقفت أخيراً ونصبت ظهري نصف استقامة لأكتشف أني عارية تماماً.. بمكان كالصحراء لولا أن الجدران تحده من الجهات الأربع جدران قصيرة وهناك قطع من الطوب المنتصب بتفرق والبحص الأبيض موزع بطريقة عشوائية كخطوط ليست منتظمة.

لا صوت هنا وكأن الجميع ناموا بهدوء مخيف..

أين أنا؟

أسألني..

وأجيب : يا ويل قلبي

أسأل مرة أخرى.. أين أنا

وأرتجف

أفكر وأتمتم بذعر كسر لا أود سماعه..

- أنا بالمقبرة..؟!

وأضحك بصوت عال بصوت مجنون غاضب لا يجد سوى أن يضحك

أوبخني..

أن اصمتي

أصمت..

ألتف حولي مرة أخرى حول كل شيء حولي وكل شيء يصدقني أنها المقبرة وهذه قبور!

وأبكي وقد حشوت كف يدي بأكملها داخل فمي..

- قد متِّ يا نجد..

- مت!

ومن عاش بعد الموت!

- أنا!

أضحك بقهقهة وبكاء وأصرخ ليصحو كل الأموات معي.

أصرخ بخوف ولا شيء سوى صدى يهز جسدي العاري.. أحثو علي من التراب لأسترني وينزلق من جديد ويفضحني.

تقرفصت بمكاني وعلى حواف قدمي أجرني

أستر عورتي وأبحث عن أي ملاذ غير قبري.. هل قلت قبري؟

كيف يكون المأوى الأخير غير أخيرٍ.. كيف نختار نهاية أخرى بعد أن اختاروا لنا أن نكون هنا..

هل الأموات راقت لهم قبورهم..!

هل لهذا السبب نحن أُخرجنا منها قبل البعث..! هل الحساب قد حان لنحاسب أهل الأرض على قبورنا وأنها لم تكن صالحة لنا وأنها لفظت أجسادنا بهذه الطريقة المخزية دون أن تمنحنا شرف العودة!

أصفعني بكلتا كفيَّ وألتفت مرة أخرى هنا وهناك..

نور خافت بعيد.. ينبثق من حجرة وحيدة تقع بنهاية هذه المساحة الشاسعة من الهدوء تتكئ عليها..

شجرة وحيدة أيضاً.. علق على غصنها ثياب مهترئة تتطاير بعد أن جفت من مائها وربما عرقها وربما هي تنتظر الشمس لتجف وتتطهر. لا خيارات متاحة أخرى سوى أنها تعود لحارس المقبرة الذي نام وترك أحلامه مع قميصه معلقة بالخارج..

زحفت على بطني تارة وعلى ركبتيّ تارة أخرى وأنا أحتضن صدري وأقول لخصلات شعري المتلبدة إياك أن تكشفي وجهي.

لم أتعلم السرقة لكني رجوت الله أن لا يشعر بي أحد..

كنت أحاول أن أتجنب روؤس الموتى بعبوري هذا.. فلقد وبخني أحدهم حينما دست على قدمه وصرخ آخر حينما ركلت بطنه وبكى أحدهم لأني لم أعره اهتماماً فلقد مات وحيداً وربما هو من دفن نفسه وزغردت لي إمرأه تهنئني بالخلاص.

لم أصل للجنون بعد لكني على قيده وأمضي إليه وربما سأعلق رأسي على كتفي وأواصل الزحف حتى أصل لغرفة الحارس هذا مايحدث عندما تلاصق رأسك على القبور وتمضي..

شددت القميص من على الغصن وكأني سمعت صياح الغصن توجعا.. لم أعتذر لكن أظن أنه سيغفر لي.

لبست القميص ولففته حول خصري لأعقد عقدة لا تفك لم أثنِ أطراف أكمامه والقطعة الأخرى سترت بها بما يكفي لكن كانت وافية لفعل هذا ويبدو أن حارس المقبرة بدين لهذا الأمتار من القماش لا تنتهي للمرة الأولى أشعر بمعنى الستر.. معنى أن تخفي جسدك

وتلوذ به عن عين الفراغ.. عن الأموات.. عن السماء السوداء والنجم البعيد..

تذكرت كل ملابسي التي تخليت عنها لأني كررتها مرتين.. وكل القطع التي حولتها لقطعتين.. لأبرز مفاتني.. ساقي وصدري والكتف والإبطين..

كنت أدعو جميع النسوة للفرجة على جسدي وكأني وليمة متاحة للنظر.. للمتعة..!

وعندما تعريت تماماً لم أعرف كيف أسترني أدس جسدي بقطع بالية ورائحة الأموات عالقة بها أضيع ما بين الكم والكم الآخر ما بين الخصر المتهدل الذي أثبته بيدي المتجرحة المنهكة وأجر بقاياي لأخرج من عالم الأموات الذي وجدتني بداخله.. دون أن أقرر هذا.

لا تغتر بكونك إنساناً..

ربما بداخلك شبح سينتقم منك يوماً!

خرجت حافية أركض على رصيف الحياة أومئ لكل الأنوار أني هنا.. أرفع يدي ألوح بها وأخرى أثبت بها هذا الإزار الذي سيفلت بأي لحظة من بين يديّ المتعرقتين بالخوف والدماء.

واصلت المسير

الركض صار مشياً ثم خطى..

تحولت قدميّ لقطعة إسفنجية.. تمتص كل أسرار هذا الطريق وكم مشى غيري تائهاً به.. ومات بمنتصفه.

أنفض قدميّ وكأني أسقط هذه الخيالات.. ولكنها تشربت بالخوف.. مبللة بالحكايات والذكريات.. تبدأ مني وتنتهي كيف أعود

لا للقبر بل لل..

إلى أين سأعود؟ أسأل نفسي

من عاش بعد الموت!

ليقنع نفسه بالعودة المستحيلة هذه، كنت كلما مررت من المقبرة

سألت نفسي ما حالنا بعد الموت.. ولم أجرؤ على التفكير بحال من خرج من الموت ليعيش..

أمر عليها كثيراً ولكن لا أسأل نفسي بكل مرة السؤال نفسه.. كنت أنشغل بأشياء أخرى بهاتفي برسائلي وقائمة المكالمات الفائتة وكأن الأمر بعيدٌ والموت لا يعنيني..

تقع المقبرة قريباً من منزلنا وكأن للأموات حقّاً وحيزاً من هذه المرافق.. يشاركوننا كل الحقوق بالمجان.. الوطن يتكفل الأموات أكثر منا أحياناً فشهادة الموت تصدر أسرع من شهادة الميلاد.

المنازل التي تطل على المقبرة جميعها أوصدت نوافذها.. فلا أظن أن هناك من سيفتح نافذة تطل على مقبرة ليقول صباح الخير أيها الأموات ها نحن نعيش على ما جمعتموه ونهنأ بكل ما تركتموه وننام على وسائدكم ولقد نسيانكم ثم يحتسي قهوته ويغني!

الجميع هنا يخاف الحياة والموت..

سارة صديقة الدراسة كلما ذهبتُ للمذاكرة بمنزلها كنت أطل من النافذة، صنعت هي ثقباً في الحاجز الذي وضعه والدها.. يقول لها كي لا تدخل لك الأرواح الشريرة المنبعثة من المقبرة.. لكنها صنعت هذا

الثقب بنفسها وعندما سألتها عن السبب قالت هناك الكثير من الإثارة بمراقبة الموتى.. كنت أظن أنها تعاني من خلل ما عندما تشاهد الأفلام لفترة طويلة لكن لم أتصور أن هذا ينعكس لواقعها..

سارة من أم أمريكية تدعى ميلا توفيت بعد بلوغ سارة سن التاسعة ونقل جثمانها حيث موطنها ودفنت هناك.. لكن سارة مؤمنة أن والدتها دفنت بهذه المقبرة لأن والدتها ميلا كانت تتحدث مع الأموات.. لهذا تقول لقد عادت أمي لأصدقائها..

كل حكايات سارة تصب فوق رأسي كبركان ثائر يقذف حمماً تصهرني وتعيد خلقي حمم أخرى..

إذاً أنا الروح الشريرة التي تبخرها المقابر لتسير بالطرقات ليلاً وتبحث عن جسد لسكنه

لتبحث عن مقاس يناسبها

عن جسد رخو سهل أخترقه

أجهش بالبكاء الآن..

أرفع رأسي لأجدني أمام منزلنا.. لم يكن هيناً هذا الوصول لقد تعثرت بالرجفة وأسقطتني الشهقة لقد كنت أركض ركض الخائفين.. وأحبو كالمنهزمين.

السور عال جدّاً.. لم أكن أعرف أن كل هذا الحجر كان يلتف حول منزلنا.. لمَ الأسوار عالية والأبواب مغلقة.. والأنوار خافتة وحتى عمود الإنارة الذي يلاصق هذا السور يتثاءب يتذبذب.. مواء القطة السوداء التي تخفيني دائماً أسمعه قريباً مني لم أشعر بالخوف أحسست أن هناك أحداً تعرف علي ويعرفني.. تتبعتها لعلي أجد مخبأها السري الذي تدخل منه كلما أبعدناها من المنزل وتعود بصباح اليوم التالي.. عرفت أنها تتخلى عن عمودها الفقري حينما تلتوي وتتحول لقطعة لحم مغطاة بالفراء لتنثني من الفتحة الصغيرة أسفل الباب الحديدي.. ثم تنتفض وتعود ترتب فقراتها كما كانت وتستمتع بلذة الانتصار على كل هذه الأبواب الحديدية والأسوار العالية..

أحتاج لعمودها الفقري لذكائها وربما لكونها كائناً حيّاً لم يمت بعد..!

أسمع صوت أقدام والدي تدك الأرض متجهة نحو الباب.. لوالدي جسد ضخم يهابه كل من يراه، صوته جهوري وكأنه يخرج من عمق خفي بداخله.. عمق لا يرحم بكل الأحوال.. يخيل لك أنه رجل جاف حاد الطباع وبالواقع هو رجل خلقه القرآن.. فكيف من أدبه القرآن أن يكون..!

لا يفوت والدي صلاة الفجر لكن لا أسمع صوت التكبير ولا الأذان أشتم رائحة الفجر ثم إن المسجد مضاء لا بد أن وقت الفجر قد حان وربما هناك تكدس من التراب يحشو أذني ويمنع الصوت أن يصله.

أنزوي خلف النخلات التي تحيط سور المنزل.. أرقب والدي وهو يفتح الباب ويتركه مفتوحاً ويوهم المار أنه مغلق.

يعد والدي الدرجات بعينيه وأعدها له بقلبي فلقد تجاوز آخرها منذ أيام وسقط متعثراً.

لم يشعر بوجودي.. بالواقع كنت أخاف هذا..

ماذا لو سألني أين كنت بغيابي الذي لا أعرف كم لبثت به؟

بحالتي ولباس الرجل الذي أستر عورتي به!

بشعري المتناثر والدم الذي يخالط دمعي

كيف أثبت له طهري بهذا كله!!

انتظرت خطواته تتباعد عن الباب لأخطف أنفاسي وأهرع أسابق الريح خوفاً من أن يغلق الباب ويجعلني ابنة الرصيف لهذا الليل..

دخلت البيت بخطوات خفة أحضنني خوفاً علي منهم.. أخطو نحو مصير مجهول لا أعرف ما الذي ينتظرني..

لا أحد ينتظرني ثم إن المنزل هادئ جدّاً والجميع نيام.. يبدو أن لا أحد يبحث عني ولا يفتقدني.

الأنوار مطفأة جميعها ببهو المنزل أصعد السلم وأتبع خطواتي بالنظر أخاف من الطين يترك أثراً..

ما زلت أرتجف بأنفاسي

بصوتي بأطرافي حتى بأهداب عيني..

هل رجفت أهدابك من قبل!

وصلت لغرفتي أخيراً فتحتها بهدوء وأغلقت بابها على عجل وأحكمت إقفاله.. ضممت شفتيَّ لداخل فمي وأنوي ابتلاعها من شدة ما أعاني هذه اللحظة، أغمضت عيني وزفرت من أنفي

تذكرت القطة وانتفاضتها.. كنت أحتاج هذه الانتفاضة ليعود شكلي كما كان..

ما أن فتحت عيني واستجمعت آخر نفس تبقى برئتي وأزحت الشعر عن وجهي لأبصر بوضوح أكثر..

كان هذا الوضوح مرعباً جدّاً..

أمي بزاوية غرفتي معي على سجادة الصلاة ساجدة تلف حجابها

الأبيض الممتلئ بالطهر.. ورائحتها التي تملأ المكان.. أرتعش صدري كنت سأركض لها لأقول أمي أنا هنا.. أنا عدت.. وحدك من سيفتقدني لأنك الحقيقة الأولى التي أمامي الآن.

تحسست جسدي المخدش والدم الذي يلطخه وهندامي البالي ورائحتي النتنة ماذا أقول لها عن هذا كله؟!

وهي التي تخاف علي من شوك الورد الذي أجمعه وأرتبه بعد كل مساء بغرفتي.. كانت تقول أفسد الورد أصابعك يا نجد..

أنظر لأصابعي وقد فقدت كسوة اللحم الذي يجملها.. غارقة بالدم والطين.. أرفعها أمام وجهي وألفها دوراناً كاملاً لأتفحص جانباً واحداً يستحق أن أواجه به حزن أمي.. لكن منظرها بشع وأظافر متكسرة ودود قد اغترف منها وجبة عشاء..

ما أن أسدلت يديّ من أمام وجهي إلا ووجه أمي أمامي أنظر لعينها مباشرة.. وتنظر لي..

أجهز تمتماتي وأجمع كلمات أقولها.

ثم أقول هي ستصدق دمعي هذا وتعرف حكاياتي.. سوف تحضنني وتقول أين أنتِ يا صغيرتي.. أمي دائماً تحبني كما أنا وكيفما كنت وإن مزقني الوجع.. إذاً البكاء هو فقط ما أحتاجه.. وانهمر دمعي وهممت لها..

لكن أمي استدارت لتطفئ النور ولم تقل كلمة واحدة لي.

أتبعها أناديها أمي

لا تجيب

لا تسمعني

تطوي سجادتها وتضعها على منضدة قريبة منها

وتهم خارجة

أفتح فمي عجباً أضرب وجهي قهراً

أصرخ بكل ما أوتيت من تعب

أميل بثقلي على المنضدة التي تركت أمي للتو سجادة الصلاة فوقها لتسقط السجادة وتلتفت أمي

أنهض من جديد.. أمي سمعتني

أخيراً أقبلت لي

فتحت ذراعي المرتجفتين لها

لكنها ثنت ظهرها لترفع السجادة وتطويها وتعيدها لمكانها!

ولا تنظر لي!

واستدارت من جديد

أتعي ما أقوله لقد استدارت! ومضت.

عند خروجها قالت بصوت مسموع مليء بالتنهد.. يا رب ارحم ابنتي نجد واغفر لها واربط على قلبي يا ألله..

وأقفلت الباب من خلفها

هي تقول يا ألله

وأنا أضع يديّ على رأسي وألتف حول نفسي وأشد بقبضتي على شعري وأقول يا ألله..

أضرب قدمي بالأرض وتنهار ركبتاي وأسقط وأقول يا ألله

أتمدد على الأرض وألصق وجهي بها وأقول يا ألله

لقد مت..

أنا ميتة!؟

هل أنا شبح نجد أم نجد نفسها.. أمي لم تنظر لي يعني ذلك أنها لا تراني.. لكني أسقطت السجادة وأحست بها وسمعت وقوعها ولم تحس بي ولم تسمع صراخي!

من أنا..

بطلة فلم خيالي تستمتع سارة بمشاهدته وسينتهي قريباً!!

أم رسمٌ من خيال رسام لأفلام الكرتون ديزني.. ماهر وأحمق!!

أم أني حلم لأحدهم وسيستيقظ قريباً ويتعوذ مني!

من أنا؟

أصبحت أهرش جسدي وكأني أذكر نفسي أن هذا جلد ومسام..
أني بشر حقيقي..!!

وربما للمقابر طين سحري يجعلني لا أظهر للجميع.

هرعت بخطا متعثرة لدورة المياه أفتح كل الصنابير وأدعوها أن تغسلني.. تغسلني جيداً أمرر كفيَّ على طول ذراعي وطول ساقي وكلما صار لون الماء طيناً أحمر قانياً ابتسمت كشريرة جائعة وشعرت بالنصر.. ها أنا أزيل خدعة المقابر بهذا التراب اللعين.

أحشر إصبعيّ بأذنيّ أبحث عن الطين الذي سد صوت الأذان وأحشر السبابة بأنفي لأتخلص من رائحة الموت العالقة أعرك عينيّ بالإبهام بقوة وأرطم رأسي على صنبور الماء وأقول له اغسلني جيداً اغسلني أكثر..

الماء كان يفعل هذا لقد أغرق جسدي كاملاً بكل منحى كان يلتف ويسقط عليه ويشق بصعوبة عن الضيق منها، رائحة الصنبور توحي

أنه منذ زمن لم يلتقِ بجسد عارٍ تحته لكن كان يفعل كل شيء من أجل أن أبقى مستقيمة تحته.

لكني كافأت لهفته هذه بأن تركته يصب على الأرض وانسحبت.. الانسحاب الثقيل الذي لا يجد أين سيكون بعد هذا الغرق..

ربما يغرق بمكان آخر دون أن يشعر.

أقف أمام المرآة التي كنت أهرب منها منذ أن وصلت بشعر مبلل قصير يلاصق رقبتي.. الخصلات تقطر ماء على عيني لتسقط مع دمعي، تشكل نهراً مالحاً يرسم درباً على وجنتي.

شفتاي لاتزالا ترتجفان، علبة الدواء التي كنت أبتلع منها زوجين اثنين من الحبوب المسكنة وربما المهدئة وعلى الأرجح هي لمن يعانون من اضطرابات نفسية حادة.. كانت فارغة كوجهي تماماً حينما شعرت أن كل ملامحه دُست بمكان ما ما زلت أفتش عنه لأصقل أنفي من جديد وأحتاج رقبتي لأشاهد فلماً مضحكاً كزرافة تحضر بقاعة سينما مثيرة للضحك والجدال.. أحتاج عينيّ لأكنس بهما هذا الضباب.. يكفي..

أحاول أن أهدئ من روعي الآن لكن أسناني تركت وسماً حولها بعد كل ضائقة، أجمعها وأعض بقسوة ولا أشعر لمَ أجمع كل هذا الوجع.. ضباب حرارة الماء يمحو صورتي من أمامي لم أجهد نفسي لأزيحه.. بكلتا الحالتين أنا ضباب..!

تذكرت طاقية الإخفاء التي كنت أتمنى أن أتملكها بعد أن أقنعني بها أحد الأفلام المصرية.. ألبسها فقط لأسرق ألعابي وملابسي من غرفة أختي أمل.. هذه الأخت التي وجدتها فجأة أمامي أكبرها بأقل من عام.. لا يجمعني معها ذكريات ولا لعب ولا حتى مشاكسات ما يجمعني بها فقط أب واحد نتشارك اسمه.

كيف نقتسم الأحرف الثلاثة من اسم والدي (حمد)، أظن هناك طريقة واحدة لفعل هذا وهي أن تهبني إياه أو أهبها إياه لا بد لإحدانا أن تكون بلا هوية ولا نسب..

أظن فعلتها الآن ومنحتها الأحرف الثلاثة دفعة واحدة وبدون مقابل!

بتلك الليلة كان صوت أمي يعلو صوت والدي وما كانت تفعل هذا بالعادة.. لأمي هدوء عجيب فكل الأمور تجد لها دائماً مخرجاً... يثق بها والدي بوجهات النظر حينما يكون محورها نحن وبالواقع هي من تثق به فما ورثته من والدها جعلته بين يديه، هكذا تفعل المرأة حينما تعشق.. كانت تريد ثروة تدوم بالحب قبل المال.

من أجلي ومن أجل فيصل.

فيصل أخي الأكبر.. الأخ الذي كان اللعب معه بمثابة رعب أو لعبة معلقة بالهواء وفشل الجميع بإيقافها ولا تعرف نهاية هذه اللعبة هل تكسر رقبتك أو تنهض لتركض بعيداً وتقسم على اللاعودة..

لكني أحب اللعب هذا وأحبه

شاب يبلغ الثامنة والعشرين من عمره الآن..

طويل بملامح حادة عريض المنكبين له شعر كلما تناثر بوجهه اجتهد والدي لحلاقته.. خطيئة ما حصل لفيصل تلاحق والدتي حتى بمناماتها هكذا يقول لها والدي دائماً..

عندما سقط من يدها وهي واقفة تهدهده لينام وبعمر الأربعة الأشهر ليصاب برأسه وتترك هذه الإصابة شرخاً صغيراً سبب خللاً بعقله وتأخر نمو بأحد أطرافه، لم تكن تختار أمي هذه الطريقة للنوم لكنه نام بطريقة أخرى.. نام وهو مستيقظ يحلم بواقع آخر لا يشبهنا.

لفيصل يدٌ أقصر من الأخرى.. لطالما كان يشد شعري منها ليهددني بالرمي من النافذة كلما رفضت أن ألبي له أمراً.

أحياناً يجد أن بفعلته هذه يفرض سيطرته كأخ أكبر.. وربما يجرب أين تصل يده كنت أسير بأقدامي وكأني أهدي له رأسي كي لا يجهد نفسه.

أشفق عليه كثيراً وأحبه أيضاً..

أذكر أنه ذات مرة اجترني من شعر رأسي كعادته وكعادتي أنساق لهذا الألم ليسحبني بالممر الطويل الذي ينتهي بنافذة نصف مفتوحة وبكل مرة كنت أقاوم هذا بالصراخ..

الصراخ الذي اعتاد عليه الجميع حتى قطط الشارع ما عاد يفزعها

لكن قررت أن أضع لفيصل حدّاً وربما لمخاوفي التي تتضخم بكل مرة من النوافذ والأطراف المتسخة.

رفعت ثوبي وتسلقت بنفسي النافذة وتدليت منها لأجده مذعوراً ينظر لي ويسحبني للداخل مرة أخرى.. وبيده القصيرة.

أحياناً نقابل الخوف بخوف أكبر منه ليفر منا ونعيش بسلام.

احتضنته بقوة ثم ركضت مسرعة لغرفتي لأصطدم بكتف أختي أمل التي كانت الشاهد الوحيد على هذه الحادثة وهذا الدرس الذي تلقيته من فيصل ولقنته درساً موجعاً آخر.

تنظر لي بعين يملؤها الدمع والصمت.. أظن أنها تشمت بي.. رغم أننا نتقاسم الأخ ذاته لكن فيصل يفعل بي ما لا يفعله معها..

أمل حكاية دسها والدي بجيبه ونسيها.. إلى أن جاءت له أمل كطرد لا ينتظره ولا يود استلامه.. بعد أن تزوجت والدتها وأرسلتها مع أحد أقاربها..

أذكر الرجل الذي قام بمهمة ساعي البريد عندما جاء بها لمنزلنا.. كان طويلاً وضخماً وله لحية أقحوانية أبيض البشرة كبير الكفين لقد لاحظت هذا عندما كانت تضم أمل بكامل كفها على أصبع من أصابعه، تحمل معها لعبة قطن مهترئة.. تلبس أمل حجاباً أزرق يشبه لون عينيها طفلة لا تتجاوز السادسة من عمرها وحذاء صغيراً لا يتسع لكامل أقدامها البيضاء... فنصفها كان يتكئ على الأرض.. يبدو أن والدتها كانت تحاول أن تجعلها سعيدة ولكن الفقر جعلها ترتبط بآخر لتقرر أن ترسلها لوالدها.. يعني والدي أيضاً.

لم يجدِ صراخ أمي ورفضها لوجود أمل.. بالواقع أمي تصرخ بوجه الصدمة والسر الذي كشفته لها الأيام.

تصرخ لتسأل والدي وتعاود تسأل السؤال نفسه لنفسها.. ولم تجد إجابة لا من نظرات والدي ولا من دمعها الذي تبتلعه كلما شهقت به ولا من ضياعها بين نظراتنا نحن الثلاثة.. أصبحت أمل ثالثتنا الآن

النساء دائماً يرفضن أن يتقاسمن وليمة على مائدتها

يتمدد رجل..!

أحتاج لمن ينكزني

لمن يذكرني أني هنا

لمن يحكي لي حكاية موتي

لمن يخبرني أن لون مناكيري الذي أختاره لا يناسب ثوبي

وأن ذوقي باهت جدّاً

لمن يوجه لي شتيمة أسامحه عليها..

ثم أين ذهب فستان زفافي المعلق هنا؟

والإكليل الطويل الذي تمدد بنصف غرفتي

وتاج الأميرة والحذاء الملاصق لسريري

وعباءتي المعطرة وحقيبتي المجهزة!

ملابسي الجديدة والقديمة لأي رف نقلت؟

والورد الذي أسقيه كل يوم بأغنية وأعده بالبقاء؟

أحتاج الآن..

لمن يسألني كيف قضيت ليلة البارحة

لمن يرسل لي رسالة ويمسك هاتفه لينتظر الرد

لمن يتصل ليسمع صوتي وينهي حديثه وهو يبتسم

لمن يفتح نافذة غرفتي ويبشرني بالصباح

لمن يخبر ماجد أني أحبه وأنتظره

أحتاج لمن يشعر أني هنا

بأي طريقة كانت..

▌ الشمس بمنتصف غرفتي افترشت أشعتها. وكأنها تستحل المكان بأكمله وتزيح رائحة الموت عنه وبجانب المنضدة تكورت منذ الأمس منذ لقائي مع أمي أضم أرجلي لصدري أرجف خوفاً من الشبح الذي أسكنه من أطرافي التي لا تترك أثراً والجدران التي لا ترجع لصوتي صداه.. المرآة وحدها من تراني ولا أراها.

كل الشواهد هنا لا تعرفني.. لا تشتم رائحتي ولا تصدقني.. ثم إني لا أشعر بالعطش ولا الجوع.. أنا فقط أبحث عن الكائن البشري المرئي بداخلي.. أشد شعري أقضم أظافري أحك جلدي حتى النزف.. أشعر بالوجع.. أبكي.. أصرخ.. أتنفس.. إذن أنا كائن بشري.. هذا كل ما يفعله البشر ليشعروا بوحدتهم والعزلة.. قضيت ساعات الصباح الأولى أراقب النملة تلك الحشرة التي تحمل فوق رأسها قطعة سكر وربما فتاتاً مجهولاً مصدره تجاهد تعثرها لتصل لمسكنها.. أتحدث معها:

أتودين مساعدتي؟

أحمل عنك

لا تخافي لن ألتهمها

سأوصلها مباشرة لمخبئك

لن أخبر أمي عنك ولا عن قبيلتك كي لا تشهر سلاحها المبيد الحشري وتبيدكم جميعاً

ولن أشي لوالدي عن هذا الثغر الذي نخر بجدار منزله كي لا يسده بقطعة مأخوذة من نخر آخر معاد تصنيعه

لن أخبر أحداً

بشرط

أن تعترفي أني حي أتنفس

أني كائن لستُ غريباً عنك بإمكانك أن تشهدي بهذا فالكثير منهم يشبهني

أنا لم أمت

إياك والتهامي..

سأغفو قليلاً.. أخبري جيوش النمل أني لم أتعفن بعد ولحمي قاس..!

أقولها وأنا أرتجف.

هل شعرت بهذا.. عندما تعقد هدنة مع الموت وأنت ميت!

- أ اا.. أ اا... أمي

هذا صوت فيصل هكذا ينادي هذه الحروف المتقطعة هي شجاعة حينما يصدر صوته ليسمعه ليعتاد الجميع على هذا النغم نعم كأنها مقطوعة غنائية ننصت لها جميعاً بحب.. التردد والتأتأة هي ميزة أيضاً..

عندما لا تجد بجيب الأطباء لها دواء.. استمتع بها.

ينادي بهذه العذوبة على أمي وبالقرب من باب غرفتي يبدو أنه اعتاد أن يجدها هنا.. كنت سأخرج له مسرعة لا بد أنه جائع أو ربما يريد من يساعده بتجهيز أشيائه للخروج مع جارنا العم عبد الله فلقد اعتاد أن يأخذه معه بنهاية كل أسبوع لدكانه بمحطة تبعد عن المدينة بما يقارب المئة كيلو، تلك المسافة كانت تسعد فيصل كثيراً حيث إن دكانه يمر عليه الكثير من المسافرين.. الوجوه العابرة المتعبة التي تدخل لتلوح بالسلام دون لفظه تجوب الدكان بخطا ثقيلة تسمع صوتها وكأنها تدفع شيئا معها

تملأ الأكياس دون أن تتأمل الأرفف، هم يلتقطون مايعرفون لا يقرأون تاريخ صلاحيته وتبدو كل الأشياء صالحة للالتهام.. كل الأصناف تتزاحم بعضها فوق بعض بكيس واحد يحاسب عليها بتمرير الريالات على الطاولة وكأنها تمسح ما علق عليها من آخر التعب، وأحياناً تكون محلقة حينما يرميها لتهوي وتسقط في أي مكان كان وحتى لو عادت لأكياسه مرة أخرى أو التصقت بوجه فيصل ليخرج هذا المسافر بسرعة ويكمل طريقه قبل أن ينطوي..

محاولة فيصل للظهور أمامهم كشخص سوي بلا إعاقة ولا تأتأة ولا حتى جزء توقف عن النمو وسبقه كل الأعضاء. يتكئ على عكاز ذي رأس خشبي بنهايته له رأس أفعى. كان أخي فيصل يحب عكازه أظن أنه يستمد قوته من الأفعى هذه.. لهذا هو يطرق الباب بها ويهش الأصوات بها ويخبر الجميع أنه هُنا .. بها أيضاً..

اقتربت من الباب أهم بفتحه وتذكرت الشبح الذي يتلبسني ويجعلني خفية على العين.. على اللسان الذي نسي اللغة وصار يعوي

بدل أن يتكلم.. زفرت برجفة دمع وأنا أسمع صوته ينادي وينادي.. وأنا أرد بالعواء وربما بالنباح أحياناً..

لم أجرب صوتي ولكني أظن هذا.

فتحت الباب بمقدار نصف عين لأعبر بنظري.. وضعت كلتا يديّ على المقبض لأكتم الصوت الذي يوحي للجميع أن الباب قد فتح بفعل فاعل..

كان فيصل قد انتصف الدرج نزولاً لكنه رفع رأسه عندما فتح الباب.. توقف ينظر برأسه الذي يهتز تلقائيّاً كلما حاول الالتفاف وتراجعت برأسي الثابت وعيني..

عاد ينادي

- أ.. أنت تِ هناا يمممه؟

وقف لثوانٍ ينتظر الرد. كنت أكمكم أنفاسي التي صارت تشهق دون إرادة وتزفر دون قصد.

سمعت صوت خطواته المتأرجحة متجهة للأسفل.

حمدت الله أني لم أفزعه.. أني لم أجرب صوتي.. لفيصل روح طفل يحب الحياة ويخاف ممن يعيشها.. من تلك النظرات التي تلتف حوله وتقيده.

لا أصدقاء له سوى عتبة باب منزلنا التي كان يجلس عليها يراقب المارة ويحفظ لوحات سياراتهم ومواعيد عملهم.. لم يكمل فيصل تعليمه رغم محاولات أمي.. كان والدي دائماً يترك الخيار مفتوحاً لفيصل ولا يبالي بعواقب ما اختاره.

حتى خروجه مع العم عبد الله هو اختياره الذي لم يلاقِ قبولاً من أبي نفسه..

لكن دائماً ما كان والدي يجد أن كل ما يعانيه فيصل هو جرم من صنع أمي.. لهذا يحاول أن يكفر عن هذه الخطيئة بترك فيصل يعيش حياته كما يشتهي..

ليست كل قرارات فيصل صائبة ولكن علينا تقبلها كما هي.

أدهشني واحتفل معي بذكرى ميلادي وإياك أن

تخبرني بأي عام ولدت..!

▌ لا أعرف كم لي هنا كيف أحسب عمري فلم تشعل لي أمي شمعة ولم يشتر لي والدي دبّاً محشوّاً بالصوف لأعرف بأي عام ولدت وكم من شمعة أطفأتها أمي قبل أن أفعل هذا لتحتفظ بها للعام القادم.

لا أعرف كم مضى من عمري بعد تلك الليلة التي تمددت بها وأنا أنتظر الصباح وأحلم بليلة عرسي لأصحو وأنا بقبري.

أصبحت من عداد الموتى لي شهادة وفاة تثبت هذا.. وصلاة أمي ودعاؤها كانا شاهدين على موتي.. لا أعرف حقّاً كيف يحسب الموتى أوقاتهم.. وهل لهم أعمار أيضاً بدون شمعة ودب لأني ما زلت مولوداً حديثاً، لقد ولدت البارحة من رحم المقبرة لفظني ترابها للطرقات لليل الذي جعلني أركض مسرعة نحو هنا لعل هنا هو الموت وما قبله كان حياة.

لا أعرف..!

غير أني لا أشعر بالجوع ولا الظمأ وكأن هناك أنبوباً موصولاً

لداخلي يغذي كل جسدي دون إلحاح العقل بتناول الأكثر من الوجبات والأكثر من الحلوى..

تذكرت الدرج الذي كنت أملؤه بالحلوى أدسه عن فيصل ومن المضحك الغريب أني أشتريه له..

بالواقع كنت أكره أن تدلله أختي أمل حتى بالمزاح لتقاسمني ما لا أود.

ربما أختي أمل الآن تهنأ بموتي وربما ملابسي المعلقة قد نقلت لها وحتى زهوري وعطري وعلاقة ملابسي وأصابع أحمر الشفاه الذي أعجبها دون أن تنطق بهذا.. وفستان زواجي الذي احتضنته واستدارت به وهي تضحك وتقول العقبى لي

لابد أنها هي التي أخذت الفستان..

لا أنكر أني كنت غلطة عندما تقدمت أم ماجد لتخطب أمل لأنها تفوقني جمالاً وحسناً.. ثم إنها أطول مني ببعض سنتمترات ولون شعرها يميل للكستنائي بطبيعته.. لقد غيرت لون شعري أنا أيضاً

لكن الجذور العنيدة تفضحني بكل مرة حينما تطل من منابتها تحمل طبيعتها الأولى اللون الأسود الباهت!

الجميع يظنون أن أمل أكبر مني كونها الأطول كما ذكرت والقليل منهم يعرفون أن لأمل أمّاً من بلاد الشام غير أمي التي كفلتها.. كانت ترجو الثواب من فعلتها لا لإرضاء والدي الذي ما فتئ يذكرها أنها ابنته وأن زواجه من أمها كان محاولته لإنجاب أطفال بعد ما حصل لفيصل وظنه أن أمي لا تصلح أن تكون أمّاً بعد هذا.. وكأني ولدت بعاهة أنا أيضاً.

وبالواقع كان يكذب بهذا، عفواً والدي لم أكن أتجرأ على القول لولا أن هذا ما تقوله أمي أن الرجال تكذب بالحب.. ولا تعترف به حتى بعد زواله.

ما زلت أذكر العجوز التي زارتنا بعد العصر مباشرة حيث كان الوقت مناسباً للزيارات الرسمية.. عجوز سمراء وقصيرة ممتلئة وأصابع يدها المجعدة كانت فاتنة أقله بالنسبة لي.. لها شفاه نحيلة مدفونة بذقنها وعيناها صغيرتان مدورتان جاحظتان لكنهما مريحتان..

بين كفيها مسبحة حمراء طويلة وحباتها صغيرة لامعة منظومة بخيط دقيق له نهاية مجعدة من الخيوط البنية..

كثيرة الاستغفار والحمد.. من العجائز القلائل اللاتي يكتفين بالتبسم بدل الكلام.

قدمت لها أمي القهوة وكنت أجلس على نهاية السلم من الأعلى أستمع ماذا تريد هذه الوقور التي تزورنا للمرة الأولى رغم قرب منزلهم من منزلنا..

كانت كل المقدمات التي بدأت بها روتينية تحدث عند كل بداية تعارف بالثناء على الأب ثم الأم ثم الهدوء لأننا أصبحنا بزمن قلما تجد به جاراً لا يفلق رأسك بالإزعاج ولا يطرق بابك من أجل صحن عدس وعلبة كبريت ولا يحول أبناؤه الشباب سيارتك لمتكأ الشلة آخر الليل..

كنا نمتاز بالهدوء وحمداً لله أن دواخلنا لا تصدر أصواتاً وإلا لما وجدنا جاراً يتقبل كل هذا الضجيج.

جلست بجانبي أمل تشاركني الدرجة نفسها رفستها بيدي على خاصرتها وطلبت منها أن تتحرك.. تبتسم وتسألني بلغة الإشارة من زارنا؟

أهز أكتافي للأعلى.. أن لا أدري

كنت أستخدم ال (لا) معها بكثرة حتى أجد مخرجاً من محاورتها والجلوس معها.

تبسمت مرة أخرى وجلست بالدرجة الأقل تفصلها عني درجتان وخيبة .. كنت أنظر للون شعرها المموج بالحمرة وجديلتها الطويلة التي تجالسها.. لأكتافها المنتصبة ولرقبتها الطويلة.. فجأة تلتفت بوجهها المدور وشامتها بأسفل ذقنها من جهة اليمين.. لتقول.. هذه أم ماجد.

صمت قليلاً وسألتها من أم ماجد؟

قالت جارتنا

أعرف وكيف عرفتِ باسم ماجد هذا؟!

بتبسم قالت

قابلتها مرة عند الخالة أم عبد الله عندما كنت أوصل حاجات فيصل للعم عبد الله قبل خروجه معه.

ثم استدارت وأكملت تنصتها معي بكل عفوية وبقيت أنظر لها والكثير من الكلام الذي لا أذكره كان بداخلي يُعلق ويجيب ويستنكر.. بمجمله كان شعور يدفعني أن أركلها من أمامي وأستمتع بمشهد تدحرجها.. لا أعرف من كان يربي وحشاً صغيراً بداخلي يكبر مع أمل فقط..!

هدوء نسبي

تحول الحديث ما بين أمي والجارة أم ماجد إلى وشوشة وهمسات

التصقت آذاننا أنا وأمل بالهواء نبحث عن صوت عن الحديث الذي تحول لسر فجأة.. وبعاداتنا دائماً كلمة سر تجلب لك الفضول دفعة واحدة والهمس أيضاً.. بدأ يتضح شيئاً فشيئاً وكأنها نجحت حيلتنا ونقل لنا الهواء شيئاً من الحديث.

عندما انتهت تلك المقدمات التي حفظناها عن ظهر قلب من المسلسلات الخليجية والعربية وحتى المدبلج منها.

المقدمة التي يحفظها العالم أجمع وعلى كل أم أن تكررها كثيراً وهي بطريقها لخطبة فتاة.

تقول أم ماجد بلهجتنا العامية:

- (أنتم ناس معروفين وسمعتكم طيبة وما جا منكم إلا كل خير والكل يمدح بأبو فيصل وفيك)

تنصت أمي ببهجة

ثم تكمل أم ماجد:

- (ومثل ما تعرفي ابني ماجد متخرج من الجامعة)

تهز أمي رأسها وكأنها تنتظر أن تقول أمه شيئاً أكثر دهشة من كونه متخرجاً.. الشهادة ما عادت تكفي بزمن الأدراج وحدها من تؤوي سنوات الدراسة كلها.

تكمل:

- (وعند ماجد ورشة خشب حتى غرفة نومي هو من عملها لي بنفسه وصنع رفوف مكتبته).

تبتسم أمي أخيراً

- ماجد لا يترك فرضاً بالمسجد ويقرأ كثيراً و..

تقاطعها أمي وكأنها لا تريد مزيداً من التفاصيل فحياة المثقفين متشابهة بالهدوء والقناعات والأوقات المزدحمة بالفراغ..

تمسح الخالة أم ماجد جبينها بقطعة منديل مهترئة مبتلة سابقاً بالعرق ثم تمسح أنفها بها.

وتفرج الإبهام والوسطى وتمررها حول شفاهها النحيلة وكأنها تستجمع قواها وتساند نفسها أنها أحسنت صنعاً حتى الآن..

لتكمل

- (طالبين القرب منكم بابنتكم الكبيرة الله يستر عليها ويحفظها لكم)

هنا وقفت أنا بمكاني:

كنت أحاول أن أجمع الابتسامة التي أفلتت مني لتتحول لضحكات متقطعة ونبض متسارع.. أضع كلتا كفّيّ على صدري وكأني أخبر قلبي أن اهدأ.. تنفس بمهل ولا تزفر بتقطع.

وحدها من تجاوزت سن الرابعة والعشرين تعي حجم سعادتي

عندما يطرق غريب أنيق بابك ويقدم لك زهرة دون أن يخبرك أنه يحبك.

عندما تتسلق الفرصة جدار روحك وتخشى عليها من السقوط..

وقفت أختي أمل أيضاً معي، تبسمت ابتسامة باهتة كان الدمع يلمع بعينها احتضنتني وهمست لي مباركٌ يا أختي.

لم تذهب لغرفتها بل بقيت معي بأكفها الراجفة تمسك كتفي لنكمل الاختباء بفرحتنا ونكمل ماذا بعد هذا الحوار.

وجه أمي يضحك بكامل ابتسامتها وكأنها تستمع لنكتة تنوي الضحك عليها بصوت عال.

تعجبت وشعرت أنه فاتني حدث مهم لكن استدركت أن أمي كانت دائماً تنتظر هذه اللحظة ودائماً ما تحكي لي عن يوم عرسي وزفافي عن كوني الأميرة التي تسوقها الأحصنة لعرش الأمير..

لا بأس إن كان الأمير نجاراً والأحصنة تحولت لعربة خشبية!

استدرت لأسأل أمل عن أم ماجد ربما هناكَ ما تعرفه كونها شاهدتها لدقائق ببيت العم عبد الله.. لكن لم أجد أمل ربما ذهبت لغرفتها، الغيرة تفعل هذا.. أقولها وأنا ألف أصابعي بعضها ببعض بتبختر وأبتسم.

خرجت أم ماجد وسبقتها نظرات أمي لي تأمرني أن أنصرف.. كنت أنتظر أن تأمرني بشيء آخر.. أن أقدم العصير مثلاً..

لا أعرف أنا التجربة الأولى للعائلة بالزواج

أنا التجربة الأولى لا بأس بألذ التجارب هنا.. أتكلم مع نفسي وأمشي بتخايل لأتجاوز غرفة أمل أنظر للباب بنصف عين وأواصل لغرفتي أفرقع بصوت اللبان الذي بفمي وبنفسي أقول:

ظهرت على حقيقتها.. ظهر حقدها..

هل يحتاج الإنسان أن يموت ليكتشف حقيقة حماقته!

▌ لست أدري أين الحقيقة كانت.. الحقيقة التي أصدقها وحدي عندما جاءت أم ماجد فهي تقصد أمل ولم تقصدني!

كانت تظن أنها الكبرى كونها الأطول مني كما ذكرت.. فتنت بها عندما شاهدتها عند بيت العم عبد الله وهي تحضر حاجيات فيصل.. تحملها بين ذراعيها الطويلتين البيضاوين وأكفها بأنامل مخروطية ملساء تكاد العروق من شدة الصفاء تظهر.

لم تتحدث معها.. فالعين حين تعجب لا تسأل عن شيءٍ واكتفت أنها سألت عن أهلها وابنة من تكون لتجيبها العمة أم عبد الله بأنها بنت حمد أبي فيصل ووالدتها منى ابنة تاجر الخردة سليمان.. كانت هذه المعلومات كافية لتخبر بها ابنها ماجد الذي اعترف لأمه أنه شاهدها وهي تخرج عندما كان يتكئ على سيارته يقلب النظر بهاتفه حتى ما إن خرجت أخذت كل تركيزه والنظر.. كل ما قاله أنها طويلة ولها أطراف فاتنة.

ولم يخبرها عن تلك النظرة التي تلاقت بعيون أمل لتبتسم لخجلها..
العيون المصبوغة بالزرقة.. الفاتنة برمشها كانت عيونها نجلاء..

يقال إن العيون تقع بخطيئة العشق دون أن تقرر هذا..

عندما سُئل البروفسور الإيطالي لارتو عن أقسى ما مر به في حياته قال :

«لا شيء أقسى من أن يضحك خارجك ويبكي داخلك»

كثيراً ما نحكي لأنفسنا حكاية أبطالها من حولنا.. نصبغ كل تصرفاتهم على عناصرها.. فتكبر أحداثها ويتدخل الشيطان كبطل غير مرئي ليكتب سيناريو لعيناً من الحقد والغيرة والكره..

ما ظننته لم أسأل عنه أحداً ولا عن صحته ولم أسعَ لتصويب الخطأ.. تمسكت بخطبة ماجد أكثر فقط لأشعر أن لا مجال لتقاسمني أمل حتى النصيب الذي طرق باب الحظ ليختارني ولو سهواً.

كنت أردد على نفسي كثيراً أني أنا أحق من هذه الشقراء بابن وطني الذي يشاركني السمرة واللهجة والطباع ثم إن كلينا له لون العين ذاته..

ثم إن لها من المتابعين كثراً.. ومن السهولة أن تجد عريساً على حسب مواصفاتها حتى لو أرادته تفصيلاً فسيكون وحتى لو كان مغلفاً بشرائط حمراء محشوراً بداخل صندوق ورقي..

أختي أمل نصف مشهورة فهي تثرثر كثيراً.. تمسك هاتفها وتحدث

نفسها لا ترى أحداً غيرها وتبدع بهذا، ربما تحدث كوباً من الشاي وربما سجادة غرفتها، عندما تفتح نقاشاً ما فتركيز الكاميرا على منطقة واحدة غير الأعين أمر يجلب لك الاستفزاز، ربما لهذا دائماً نعلق بطريقة سلبية على موضوع ما ولكن هناك من يجتمع حولها من ينصت لحديث لا يعنيه..!

كمثل مواقيت صحوها والنوم.. لخطواتها التي شاركت بها الجميع.. لمذاق الغداء وأين سنتناول العشاء.

للطبق الذي أرسلته لنا جارتنا أم عبد الله وادعت أنه من صنع يديها.. لعصير البرتقال الذي أعدته من الليل لتصوره في الصباح على نافذة غرفتها وتدعي النشاط والصحة.. لتتركه مكانه وتعود للنوم

الكثير من الهراء يختبئ خلف هذه المواقع والكثير من الأغبياء يعرفون هذا ولا يزالون يصدقون ويتابعون.. هنا تكون صناعة الحمقى بطريقة فاخرة.

أظن أنها حكت لهم كثيراً عن موتي ولكن كيف قالت لهم هذا.. هل بدأت بعبارة انتقلت لرحمة الله تعالى أو أزف لكم خبر وفاة أختي نجد!

وكيف اختتمت العبارة هل كتبت وإنا لفراقك يا نجد لمحزونون أم أتمنى لك طيب الإقامة بقبرك!

هل صورت لحظة فزع والدي وعويل أمي!.. أم اكتفت بتصوير سواد النسوة وهن يلجن لبيتنا للعزاء وكتبت (عزاء تايم)!

أبتسم نعم.. لأن هذا ما يحدث الآن..

لا أظن أنها تجيد الكثير من التنميق بالعبارات فلطالما كانت تتصفح المواقع التي نسيها أصحابها لتتلصص على الاقتباسات التي كتبوها بذروة جنونهم والخوف.. بحدة حزنهم والبكاء.. بعمق حبهم والعشق.. لتنسبها لنفسها..!

لا أعرف كيف يتجمل بالأدب من كان خارج نطاقه.. من يعلم هذه الثرثارة أن لها جمهوراً مقتنعاً بها دون هذا العناء..!

كيف يصبح المرتزقة وسارقو الحرف أدباء!

كيف لا يشعرون بالخزي عندما يسرقون طفلاً ويلصقون نسبهم به ليكبر ولا يشبههم ويوماً ما سيركض بعيداً عنهم.

بالواقع لا أعرف ما الذي تتحدث عنه طوال يومها.. أنا فقط أومن أن نصف حديثها فارغ والنصف الآخر لا يطاق..

كنت أفكر بفواصل الزمن.. هل كانت ترسل به أشعاراً مسروقة لماجد وتدعي أنها وليدة اللحظة! أم هل كان من ضمن آلاف المتابعين ينصت لها ويتعلم كيف يعد طبقاً شهيّاً من البيض!

الجو بارد بغرفتي

كل الأغطية ترتجف معي..

أتلحف الهواء وأضلعي.

أعيد حشو القطن بأذني وأنفي

ربما هكذا يدفأ الأموات..!

الدمع يرتجف على شفتيّ المزرقتين

أصابعي أضمها بعضها لبعض أواسي بعضي ببعضي

أنظر هناك حيث سجادة ومصلى تركتهما أمي فوق المنضدة

لقد أخبرتني يوماً أن بالصلاة دفئاً وأماناً

أجثو على أربع أزحف إليها

أفترشها وألف الشراشف على رأسي

كلما حاولت أن أُكبر وجدت أن يديّ لا ترتفعان لتوازيا أذني

أحاول مرة تلو الأخرى

أتجاوز التكبير لأبدأ بدعاء الاستفتاح

أتلعثم ولا أذكره.. أتأتئ ولا أنطقه.. هل نسيته حقّاً!

تجاوزته لأبدأ بالفاتحة

لم أستطع البسملة ولا الحمد

كنت أرددها كثيراً خلف أمي وهي تطبخ وأنا بالصف الأول الابتدائي

ثم أذكر أني قرأتها كثيراً طيلة سنوات الدراسة

أنا أحفظها جيداً

ما بالي لا أنطق بها..؟!

تجاوزت التكبير والاستفتاح والحمد

وحاولت بقصار السور

لساني ثقيل جدّاً.. أكاد أبتلعه.. لا بل صخرة كبيرة معقودة بسلسلة تبدأ من لساني وتنتهي بنهاية هذه الغرفة الممتدة بالوحشة..

تجاوزت التكبير والاستفتاح والحمد وقصار السور وهممت بالركوع لكن لم ينحنِ ظهري

قبل دقائق كان منحنياً

أتحسس ظهري وأساعده لينحني راكعاً أهمس له.. ما الذي أصابك..؟

أنا لا أشعر بوجع سوى أن جسدي متصلب

زفرتها بحرقة وبكاء..

فتجاوزت التكبير والاستفتاح والحمد وقصار السور والركوع

كنت أريدها سجدة لا أرفع رأسي بعدها

كنت أريد سجوداً لعل الله يخلصني

كنت أريد أن أخبر الله عن ذاك الشبح الذي يسكنني

عن الوجع الذي امتد بداخلي

عن عجزي وخوفي وهلعي

عن الليل الذي لا أنامه

والنهار الذي لا أجوع به

عن قبيلة النمل التي تنتظر سكوني لتلتهمني..

لم أستطع السجود ولا حتى التسليم

فوقعت متمددة على مصلى أمي وأبكي..

لم أذكر أني كنت بكل هذا الضعف والعجز..

ثم إني لا أذكر متى آخر فرض صليته لأحاجَّ به..!

جسدي يرتجف أحاول أن أحفر جحراً هنا وأدس نفسي

عيناي من دمعهما تغرقان تعباً ونعاساً

أغمض عيني وأقاوم ثقل أجفاني

أنظر لكل الثقوب أسفل جدران غرفتي

وأشتم رائحة جوع كل الحشرات خلفها..

خوف..

أهلاً ديسمبر..

لم أقلْها أنا.. بل أحد آخر معي هنا.. يلتف حولي وأنا متمددة أشعر أنه يقيم أحد طقوسه الدينية الغبية التي لا تمت لنا بصلة يصل عند رأسي يقف ليقول أهلاً ديسمبر ويكمل طوافه.. أفتح عيني بتثاقل فلا مزيد من المفاجأة ولا عاد يفزعني شيءٌ كحقيقتي.. أقدام حافية ناعمة بيضاء ملساء وكأنها لم تمش على الأرض يوماً ولم يدنسها تربة هذا الكوكب، لونها ممزوج بالنور تظهر تارة وتختفي تحت رداء أبيض حريري، بالواقع هو ثوب بعدة طبقات لا أعرف ماهيته ولكنه يتراقص بين هذه الأقدام ليلتف عليها تارة وتارة أخرى يغطيها كالأكاليل.

الهواء المنبعث من الخطوات والالتفاف هذا كان يحمل رائحة طيبة..

ظننت أنها أمي لكن أمي حنطية البشرة وأقدامها عريضة أنا أشبهها بهذا.. كل هذه التخمينات ورأسي لا يقوى على الحراك ليكتشف أو ليوقف هذا الدوران..

أخيراً توقف وكأنه أخذ ديسمبر وخرج.. ثم لم أكن أنتظر هذا الشهر ليأتي أحدهم ويخبرني بقدومه بالأهلاً!

أتكئ على يديّ أحاول النهوض كل شيء بجسدي عاد لوظيفته كما كان هذا ظهري ينحني وأصابعي تمتد بعيداً بعد أن كانت تمثل لي عجزها بالتحنط المفاجئ.

بنصف جلسة ترنحت على إحدى أقدامي المثنية أزيح شعري المنكوش وأعيده لمكانه خلف أذني بالواقع أريد فقط أن أحظى بقليل من الهواء والكثير من النظر وهذا الشعر يعيقني..

رفعت رأسي لأجد من يجلس على الكرسي الهزاز.

الحرائر البيضاء.. والأرجل الملساء على أطراف أصابعها تدفع الكرسي للاهتزاز، رفعت لأجمع الأجزاء لتكتمل الصورة..

أكف ممسكة بالزوايا المنحنية للكرسي خادرة ممتدة على طول هذا المتكأ الخشبي نحيلة فاتنة.

تسلقت بنظري للصدر الذي لم يشِ بجنس هذا الجسد للرقبة ثم الوجه..

وقفت دفعة واحدة..

رجعت خطوات للوراء أتعثر بالهواء وظلي تبحث يداي عن أي متكأ وزاوية لأدس بها نفسي من هول ما رأيت

أشهق بعيني..

هل جربت كيف يكون هذا!

عندما تفتح كلتا عينيك وتخاف من انتباهتهما فتصير الانتباهة شهيقاً دائماً.. فاغرة فمي وكأن هناك من سيستخرج أمعائي من فمي أشعر بهذا..

ورغبة التقيؤ تقف على حافة حنجرتي وتعود وكأنها تمارس معي رقصة الغثيان المقززة.

وجدتها أمامي بعد خمسة عشر عاماً من الموت.. تجلس على الكرسي الهزاز تحرك أصابعها ويتراقص ثوبها بين أرجلها الطويلة وتنظر لي وتبتسم.. بشفاه نحيلة وأسنان متقدمة لم تفقد منها شيئاً.

تنظر لي بشعرها الأشقر الذي أعرف وعينيها الزرقاوين وجبهتها المرتفعة ومسام شعرها الذي يبدأ من منتصف رأسها وأنفها الطويل بمنخارها الدقيق..

تنظر لي بوجه أبيض أبيض لا دم به ولا حياة.

وجه خرج للتو من ثلاجة موتى بعد أن نُسي بها لأشهر وربما لسنوات هذا الوجه كنت أشاهده بفلم أمريكي سخيف ينتهي أنهم أشخاص خرجوا من الموت ليقتاتوا على دماء الأحياء.. يتجرعون منه ليعيشوا وليصبح الأحياء أمواتاً مثلهم.

صرخت بوجهها صرخة المذعور الذي ينوي أن يهرب لتحت السرير كحيلة مضحكة للهروب.

صرخت كصراخ قطة تعرف أنها ضعيفة لكنها تجرب صوتها

أصرخ لأقول أنا مثلك أنا من المقابر جئت وأنت من ثلاجة الموتى.. الفرق أن الطين يحتفظ بدمي فقط لأنبت بعد حين إنساناً مرة أخرى.

كنت أصرخ بكل العبارات وأذكرها أني غير شهية وأن طعم دمائي لا يهبها الحياة.

أصرخ ملء الخوف.. أيقنت الآن أنه حتى الأموات يخافون من الموت ومن الأموات أيضاً..!

كانت تنظر وكأنها تخلت عن حدود عينيها واكتفت بالبؤبؤ لتخرجه بأكمله للخارج والسواد يضيع بداخلها لا لون لرمشها وربما لا وجود له.. أظن أنها بلا أجفان فطيلة هذا الوقت لم ترمش أبداً.. ثم إن لها شفاهاً مزرقة تلوك كلمات خافتة لم أسمعها.. ووجهاً نحيلاً يكاد يلتقي خدها الأيمن بالأيسر عبر تجويف الفم.. لها أسنان طولية كاملة.. من قال إن الموتى يفقدون أسنانهم.؟!

فقط الأحياء من يعانون بكل موسم من فقد.. فقد أسنان وفقد عظام وفقد عافية.. لا يشعرون بالواقع بكل هذا فلديهم القدرة على التأقلم بكل جديد بديل..

صمت صراخي بعد أن أحسست أنها ستتخلى عن كرسيها الهزاز وتتجه صوبي.. شعرت للمرة الأولى أن هناك ثعباناً يلتف على أرجلي يقيدني بالخوف والاشمئزاز..

أزفر بقوة وكل لعابي يخرج معي وأبحث عن هواء لأشهق ولكن كل هذه المساحات تضيق.. ما زالت تنظر لي وتهمس أنا لا أرغب بالسماع أنا لا أنوي الخلاص وكأني سأقترح عليها أن نحفر معاً ثقباً بهذا الجدار لنهرب.. هي تعود لثلاجة الموتى وأنا أعود.. إلى أين أعود؟!

لا أعرف

- اهدئي

أصمت أنا

أنا ميلا.. هي تقول

أشهق

- ميلا الأمريكية أم صديقتك سارة

أرتعد أنا

ميلا قد توفيت منذ سنوات ودفنت هناك حيث مقابر تصلح لديانتها.

- وكيف لمسلم أن يدفن بغير مقابر المسلمين.. تقول لي ميلا

- أصرخ بوجهها

- تصمت هي

كيف لي أن أتحاور مع الأموات.. كيف لي أن أصدقك.. كيف أن أنتزع هذه اللحظة من رأسي وأقتلع صورتك.. لست ميلا.. أنت الشبح الذي تركته ميلا ليفزع سارة طوال هذه السنوات ليصدق الجميع جنونها وأكذبهم، لأصدق هلوساتها وأؤمن بكل ما تحكي لي عنه.

عن الثقب الذي صنعته لتتلصص على الأموات من نافذتها.. عن زيارة أمها لها بكل ليله وشعورها بهذا.. عن أدراجها المنظمة ومسائل الرياضيات التي حلت نفسها، وعن المنبه الذي يرن بمواعيد صحوها دون توقيت.. عن الشرائط التي تعلق بكل ذكرى ميلاد لها... عن الأمنيات التي تكتبها على اللوح السحري لتجدها بعد حين.. كالعروسة التي تتحدث معها.. كا لأرنب الذي يركض بغرفتها وينام بجوارها وتدسه عن والدها وتنكر وجوده لولا أنه يكتشف هذا من ما يتركه الأرنب ويشي بوجوده.. عن الأسئلة التي كان يوجهها والدها

لها من أين لك هذا.. لتجيب أنها أمي.. ليصفعها مرة ويحتضنها مرات.. ليغلق كل النوافذ ويفكر ببيع منزله خوفاً من الشبح الذي تؤمن به ابنته ساره.. الشبح الذي تحكي لي عنه لم يكن يشبهك أبداً.. أنه يشبه ميلا والدتها الجميلة الشقراء..

تجلس ميلا منتصبة أكتافها وتضم أطراف أصابعها ببعضها بثقة وهي تنظر لي ولم يهتز لها طرف من حديثي كاملا وكأنها تعرف كل هذا وأكثر منه..

- أنا هي ميلا والدة سارة

أنا الحقيقة التي أخبرتك بها سارة.. وأنا الوهم الذي لم تصدقي به

أنا الأمنية التي تحلق فوق رأس ابنتي وتسترق السمع من أحلامها

أنا اليتم واليتيمة والعجز والقدرة والألم والصبر والعزيمة.

أنا هي التي أخفت خبر إسلامها عن أهلها حتى لا تغضب والدتها العجوز التي تعاني من حالة نفسية منذ رحيل والدي الذي تزامن مع رحيلي وزواجي من محمد

تشاركنا المدرج ذاته بجامعة MICHIGAN لم نكن نحلم سوى بالتخرج ولكن كنا نؤمن بالحب الذي يأتي على هيئة فرصة ولا يمكن أن تعود كما جاءت ببهجتها الأولى وبذروة جنونها..

لم نعترف بالديانة التي جعلت لكل واحد منا طقوسه وعاداته.. كان يقول لي أنت من أهل الكتاب ويحق لي الزواج منك.. ستكونين لي وحدي..

كان الصوت الذي واجهه عائلته المحافظة على عاداتها ومتمسكة بتقاليدها كديانة قديمة لها شعائرها ومن يخرج عنها كافر!..

وكان لي الصوت الذي أعلنت به رغبتي بالزواج منه صوتي كان خافتاً هادئاً.. أحب أمي وأخاف عليها.. وأخاف إيضاً على والدي المريض.. كلما رفضت.. كنت أقول بصوت مكسور أني أحبه.

هذا الانكسار الذي اختلط بعاطفة أمي نتج عنه موافقتها ودون شروط.. لم تكن أمي تكرهني ولكن أحسست أنها تنوي الخلاص مني فلم تعد قادرة على تحمل إضرابي وبكائي.. كانت حريصة جداً على شهادتي وتخرجي.

لم يمض وقت طويل على تخرجنا أنا ومحمد حتى قرر الانتقال للعيش ببلاده.. سكنت العاصمة وكنت مبهورة بكل شيء برمالها بأجوائها بنخلها وحتى بعاداتها ورفض أهله لي.. لم أشعر أني غريبة يوماً لأنه سرعان ما رزقت بطفلتي سارة والتي قررت أن أمنحها حياة أفضل مني.. أن تكون ملاصقة لي.. ربما رفض والدتي لزيارتها طوال هذه السنوات خلق بداخلي خوفا من الفقد من المصير الذي أختاره الحب ولم أختره..

عندما كبرت سارة وصار حضني لا يتسعها لقد امتدت أقدامها بعيداً أشعر أنها كبرت وأصبحت أنثى دفعة واحدة ماقبل سن المراهقة مدللة عنيدة عابثة وفوضوية.. انفصلت بغرفة صغيره اختارت عزلة لها منذ أن كانت تنام مع عرائسها حتى أصبحت تنام وهي تحتضن كتاباً..

صرت أخاف أن تقع بفخ اختلاف الديانة.. ديانة والدها وأنا ولكل منهما فصل لا يشبه الآخر وعقائد مختلفة.. ولأنها ولدت بهذا البلد العربي المسلم تحمل هوية الدم والأصل.. كان لابد لي أن أتعرف على الإسلام أكثر.. لم يدفعني فضولي لهذا ولا حتى حبي لمحمد.

كنت أحب مشهده المألوف وهو يصلي ويلف الحجاب حول رأس صغيرتي سارة لتفعل كما يفعل تركع وتنام عند السجود لتناديني ماما تعالي لجانبي.. كنت أخجل من هذا النداء ولم أجرؤ على تعلم الصلاة..

تعمقت كثيراً بالبحث.. تعمقت لدرجة أن كان هناك شعور غريب يتسلقني يطل من نافذة قلبي يطرق مشاعري بغصن زيتون.. للمرة الأولى أستمع للأذان بتمعن وللقرآن بنشوة..

أسلمت.. بمعنى استسلمت بكل جوارحي ورغبتي وحبي لهذا الدين.

نعم.. نطقت الشهادتين.. وفرح محمد بهذا أخذني لمركز جاليات لأعلن أسلامي طوال الطريق كان يكبر ويمسك بيدي مرة يقبلها ومرة يضعها على قلبه ليقول كنت أعرف هذا وهو يبتسم.. كنت أود أن تشهد سارة والكون أجمع على إسلامي لكن فضلت أن يبقى سراً لحين أرتب لهذا الخبر وأنقله لأمي.. فلقد كان لي أصدقاء ينقلون أخباري لوالدتي فخشيت غضبها لأن التخلي عن النصرانية عار أمام أهل والدي وأصدقائها..

والدتي إنسانة تحافظ على واجهة العائلة وتلتزم بكل الاحتفالات تقدم الورد بالعزاء وتلبس الأسود وتصطنع البكاء وبالأفراح تعد طبقاً من الكيك بمقادير معيارية دقيقة ليعجب به الجميع وتحصد الثناء لا الشكر، والدتي محافظة على هذا أكثر ما تحافظ على تناول حبوب الضغط بمواعيده.

ثلاثة أشهر كانت كفيلة بأن تحولني لشخص آخر.. شخص يستلذ بالحياة ويجدها بين الركعات.. بالسجود الذي ألاصق به جبيني بالأرض وأشعر أن التضرع لله لذة.. بالدعاء حين أضم كفيَّ وأخضع برأسي على استحياء كيف لاأشكر من وهبني هذه الحياة لم أشكره ومازلت أطلب منه ويعطيني.. يسترني وعن الجميع يغنيني.. أحبه وأشعر بحبه وبلطفه وعظيم كرمه.

وجدت بالصلاة مالم أجد بغيرها.. كنت بكل مرة أحفظ سورة من القرآن لأتلوها بالركعات وكأني أخبر الله أني جئت بسورة أخرى وأني أحفظ آياته وأعمل بها..

خلال الأشهر الثلاثة تعلمت الكثير عن الإسلام أصبحت شغوفة

بالبحث والقراءة عنه.. أما محمد كان سعيداً لهذا سعيداً لدرجة أني كنت أصحح له بعض المفاهيم عن حقيقة دينه وأحكامه..

وجدت أن كل هذه العادات التي تبدأ بالعيب وتنتهي بالحرام.. التي كانت من صنعهم هي وجدت لتحميهم من تقلبات العصر.. فصار الالتزام بها عبادة والخروج عنها معصية.. وجدت بالإسلام الكثير من الأحكام الربانية الدقيقة بكل الأمور الحياتية الكفيلة بفعل هذا كله دون اللجوء للتعصب..

الإسلام دين جعلني أنمو بطريقة مختلفة.. أشعر أن هناك حقلاً أخضر بداخلي وأشجار لوز ممتدة نحو السماء.. وزهر الخزامى يتجدد عبيره لأنتشي به حباً ووجمالاً..

أنا مريم ولست ميلا

اخترت هذا الاسم لي عندما اخترت ولادتي من جديد..

واختارني الله لجواره وما أطيبه من جوار..

- ولماذا أنت خارج نطاق ذاك الجوار.. أقولها وأنا ممتلئة بالدهشة مفجوعة بما سمعت وبما أرى.

تتبسم هي

- لَم أنت هنا؟ أصرخ بها

تسحب أنفاسها بهدوء وتعيد اتكاءة ظهرها للكرسي.. وتصمت

- إذاً سارة كانت تشاهدك بهذه الصورة!

هل سارة نصف ميت ونصف حي؟

لتعيش معك وتعيش معنا!؟

- سارة لا تشاهدني هي فقط تشعر بوجودي وتؤمن به فقط الأموات من يتنسى لهم رؤية من ماتوا.. تقول ميلا

- هل يعني هذا أنا محظوظة وعلي أن أضحك وأصفق؟!

- نعم أنت الأكثر حظاً بزيارتي هذه

أبكي أنا

تصمت هي..

أنا بعزلة

العزلة التي اختارها لي القدر

أشعر بأدق الأشياء من حولي

بالمنبه الذي أسمع تكات عقاربه قبل رنينه

بالهواء الذي يلتف حول أنفي وأستطيع تمييزه من أين أتى هل من حظيرة جارنا

أو من شجرة السدر المزروعة أمام منزلنا منذ أعوام..

أشعر بتنمل أصابعي حينما تجوع للكتابة

حينما تنهش ظهرها فوق الورق دون أن تكتب شيئاً يستحق القراءة

أشعر ببلل خطوط العرق وهي ترسم خرائط تيه فوق صدري

أشعر بالبعوضة العملاقة التي تقف فوق أنفي الآن تبحث عن دم حار تسد عطشها

أنظر لها وكأني أشهد جريمتها دون أن أفعل شيئاً

لكنها سرعان ما تطير لتسقط على كتفي بعد أن تسممت من دمائي

أزيحها بطرف أصبعي وأستلقي من جديد

كطعم عملاق يبحث عن ضحايا..

الحوارات الصغيرة هذه تدفعني للجنون تجعلني أضحك بصوت عال لعلي أشعر بسخف ما يحدث لي..

أهلاً ديسمبر

لا شك أنها ميلا البيضاء المخيفة.. لن أسميها مريم

حتى لو كان اسم مريم محبباً لها.. فهي ترغمني على وجودها معي ولن ترغمني على ندائها بما تشتهي.

بالواقع لم تطلب مني هذا ولكن أحاول أن أنبش غضبها لتغادرني.

أرفع رأسي بتثاقل.. بمعنى دعيني أتكئ على حلم فارغ أجمل من واقع يجمعني مع شبح قد غادر صاحبه منذ أعوام.

تفتح ستائر غرفتي.. تحوم حولي أسمع صوت الأدراج تفتح وتغلق لا أعرف ما الذي تفعله بالضبط لكن هي تمارس طقوسها كالعادة مع غرفة سارة.

بصوت هادئ مثخن بالبحة أقول.

- اتركي كل شيء مكانه أمي ستدخل الآن:

تواصل هي عبثها..

- اتركي لأمي أشيائي وعودي لسارة لست بحاجة لك

تصمت قليلاً وتعاود الضجيج الهادئ

أصرخ ببكاء..

دعي شبحي وابحثي عن غيري

أريد الخلاص إذا كنت تحفظين طريق العودة للمقابر فدليني..

لا أريد غير هذا.

أواصل بالصراخ من تحت وسادتي وكأني أنوي الاختناق ولا أجده.. ترفعها عني لتحتضنني بقوة.. كما يحتضن الهواء الهواء.. لا يشعر بثقل امتزاجه.. أشعر أني سأخترقها وربما هي من يخترقني الشعور مخيف لكنه مريح.

ربما ستكون ميلا صديقة لي من يدري!

- متعبة يا ميلا..

- ستعتادين على هذا

- كم تبقى من عمر شبحي

- لا أعرف موعد قيام الساعة.. تقولها وهي تنظر لعينيّ المذبوحتين بالبكاء

- وهل سيتحول الجميع لأشباح؟

- بل ينبتون أحياء من جديد

- وهل سأبقى لذاك الحين شبحاً

- ربما

أتنهد أنا

تبتسم هي

أرتجف أنا

تمسك بيدي التي ترتجف وكأنها فقدت كل أعصاب الحس بها.

- أنا لا أستطيع حتى الصلاة يا ميلا هل تظنين أن الله أخرجني ليعذبني بهذا الواقع؟

أقولها وأنا أختنق

تبتلع شفتيها النحيلتين لداخل فمها وتخرجهما على مهل وكأنها تحضر لإجابة طويلة.. طويلة للحد الذي يجعلها تنتقي عبارة واحدة وتصمت.

- كيف كانت صلاتك قبل الموت؟

- أعرك عيني أهرش أنفي أهز رأسي.. لأتذكر..

وأرفد اعترافي بتخاذل أنا (مقصرة) هذه العبارة التي نقولها دائماً كبديل لكلمة لا أصلي.

- تذكرني ميلا بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث.. صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) رواه مسلم.

كنت أشعر بتعرق وخجل كيف أن ميلا بلسانها نصف العربي

تتلو علي حديثاً كهذا.. كيف هي صدقت مع الله وصدقت بنيتها وإخلاصها وإسلامها، وكيف أننا عرفنا الإسلام وولدنا عليه وتجاهلنا تعاليمه وواجباته.. أم علينا نجرب كل الأديان لنصل بعد تعب وعناء لدين يخلصنا ونفر به عن كل شيء.

عرفت الآن لمَ لم ينحنِ ظهري عندما نويت الصلاة لمَ نسيت دعاء الاستفتاح والتكبير الذي شل أصابعي قبل محاذاة أذنيّ والحمد وقصار السور كيف فرت من لساني وذاكرتي..

عرفت أن علاقتي مع خالقي انتهت، علاقة الأعمال وتقديمها، المهام وصدقها والصلاة والصيام والفروض والأركان كلها.

عرفت لمَ لا أسمع صوت الأذان رغم أن المنابر تشعل أنوارها وتفتح المساجد أبوابها... رغم خروج والدي بتوقيت الصلاة وكنت أحسب أن مكبرات الصوت تشكو من خلل فني مؤقت وربما أذني قد صُمت..

عرفت أن هذا الخلل يسكننا عندما ننغمس بالغفلة ونلاحق مشاغل الحياة دون توقف.

عرفت أن التسويف يأخذنا بعيداً وأن العمر الذي نغتر به يبهرنا

وأن الموت هو فقط للمرضى وكبار السن

عرفت هذا يا ميلا الآن.

عرفت هذا يا ميلا

أقولها وأنا أضم كفيَّ لفمي أكتم صراخي وأنفاسي..

أقولها والدمع يبتلع غصاتي ويواسي خيباتي

أقولها وأنا أعرف أين مصيري الآن.. لولا رحمة الله تغشاني..

مؤلم أن تندم على فعلتك بوقت فائت.. وقت قد انتهى..

الصمت يطول إذا لم يعد للكلام جدوى..

جميعنا نحترم الصمت هنا وكل المساحات والزوايا يستعمرها السكون

إلى أن تُشفى الروح ويداوي دمعك كل الندبات بداخلك..

هل جربت أن تواسي وجعك بالصمت!

▌ صوت أمي تردد أذكارها تقترب من الباب وبيدها مجموعة مفاتيح لا بد أنها جعلت مفتاح باب غرفتي مع مفاتيح الأبواب التي تحرص على إغلاقها دائماً.. كغرفة جدتي التي توفيت قبل ولادتي، ولا نعرف ما لون الحائط ولا السرير ولا إن كان هناك صورة معلقة لجدي مثلاً.. هكذا تحفظ الجدات الود بعد موت أزواجهن.. ومفتاح غرفة الضيوف التي تفتح كل نهاية أسبوع للتهوية فقط على زواياها قطع خزفية ثمينة تحرص أمي على تلميعها بالنفخ من هواء صدرها وتمسحها بطرف كمها لتنعكس صورتها كأجزاء صغيرة على الخزفية الملونة.. تعيدها لمكانها بحذر وتغلق الباب حتى أني لا أذكر متى فتحت هذه الغرفة لآخر ضيف مهم بعد أم ماجد.. وهناك مفتاح الباب الخلفي الذي دائماً تحرص على إقفاله مرتين وكأن الباب سيفتح إن قفل مرة واحدة. وتدعي بعد هذا ضياع مفتاحه لتستطيع التحكم بخروج فيصل ودخوله من باب واحد رئيسي..

أنظر لميلا أبحث بين عينيها عن حل .. أهز رأسي ماذا أفعل وأين أختبئ.

تهمس لي بصوت خافت

- الأحياء لا يبصروننا فقط اهدئي..

تذكرت أني فعلت هذا سابقاً لكن ظننت تراب المقابر هو من فعل هذا وجعلني غير مرئية.

تفتح أمي الباب تطل برأسها أولاً وكأنها تتحقق أن لا قط هناك سيقفز بوجهها. بعد ما فعلت آخر مرة عندما تجرأ قط على التسلل لغرفة الجدة وبعد أيام من المواء فتحت الباب لينهال عليها توبيخاً بمخالبه ويشكو بالمواء حاله..

كنت أقول بنفسي ماذا لو عرفت أن هناك قطّاً ضخماً ينوي أن يهرب من هنا دون أن يجرحك بمخلب ولا يثير رعبك

ماذا لو كنت أنا ذاك القط الذي تخشينه يا أمي..!

وقفنا أنا وميلا كعمودين متوازيين لا نلتقي بنقطة ولا تجمعنا سوى هوية الموت.

لنترك كل هذه المساحة لوالدتي لتصلي وتدعو لي لعل الله يرأف بحالي..

دخلت على مهل وعيناها تغرقان بدمعها تمشي بتثاقل على السجادة الممتدة بمنتصف غرفتي وكأنها تنوي ترتيب شعيرات الصوف بها بأصابع أقدامها.. تجلس على طرف السرير وأنظر لظهرها المحدودب وأكتافها الهزيلة بهمومها.. تذكرت كم مرة كانت تطلب مني أن أهمز لها بالضغط أكتافها ورقبتها وكم مرة تعذرت وأجلت هذا الأمر لحين تفرغي لأعود وأجدها غارقة بالنوم وهي تمسك كتفها..

كانت تستند على يديها خاضعة بالحزن رأسها للأسفل.. لم أسمع بكاء أمي هي تحاول الشفاء من حزنها لكن فكرة وجود غرفتي وغرفة جدتي تثقلها لهذا هي تفكر بالخلاص من إحداهما..

ترفع رأسها تتأمل الغرفة وتشتهي أن تتساقط كالمطر تبلل كل زاوية هنا لعلها تنبت ذكرى جديدة.

هنا تنتبه أن هناك من أعاد ترتيب أشيائي البرواز الذي يحمل صورتي مع والدي وفيصل لم يعد يتوسط الرف.

ثم شهادة التفوق الوحيدة التي حصلت عليها المعلقة بالجدار منذ أن استلمتها هناك شرائط من الساتان اللامع على أحد أطرافها..

الكرسي الذي بقي بنصف اهتزاز.. سجادة الصلاة التي لم تعثر عليها، لتجدها بأحد الأدرج.. كانت أمي تحفظ مكان الأشياء ثم إن الغرفة مقفلة وصوت صنبور الماء بقطراته الفاضحة يدل أن هناك من استخدمه منذ وقت قصير..

أصبحت أمي تحدث نفسها بلغة الإشارة.. كيف ومتى وتغالط نفسها وتصوب أخرى..

كنت أنظر لميلا وأشير بأصابعي أن أنت السبب أنت من أعاد ترتيب الأشياء لقد قلت لك دعي هذه الغرفة لأمي.

لا يهمني ما تفعلينه بغرفة سارة.. كنت أوبخها بالنظرات والهمس وبصمتها تشعل الغضب بداخلي وقفت أمام ميلا وأمسكتها من كتفها وهممت بسحبها أن اخرجي من هنا.

سقط هنا برواز الصورة ربما حركته بيدي الطائشة وأنا ألوم ميلا

التفتت أمي بذعر بعد أن كانت تنوي الخروج..

رددت الذكر ولم تجرؤ أن تعود وتعيد الصورة لمكانها.. خرجت

مسرعة وبأصابع مرتجفة تقفل الباب وتحكمه بالقفل مرة.. مرتين وكانت تحاول بالمرة الثالثة ولكن لا ثالثة هذا عمر الأقفال ينتهي بالثانية..

توجهت مسرعة نحو الباب ألتصق به وكأني أطلب منها أن لا تنساني أن تأخذني كنت أنوي أن أخبرها أني أخاف الظلام وأخاف الأبواب المغلقة وأني سأتقيأ قلبي أن بقيت هنا.

كنت سأروي لها حكاية الباب الذي أغلقته بالخطأ على نفسي وحبست نفسي بغرفة ضيقة مليئة بالوسائد إن سحبت إحداها تهاوت جميعها فوق رقبتي لم تجدِ نصائحهم لفتحه عن استدارة المفتاح لليمين ولليسار وكيف لي أن أفرق بينهما كنت من بين أصواتهم أبحث عن مخرج يؤدي لك..

سأحكي لها عن صراخي وخوفي وكيف أنها بقيت تغني لي من خلف الباب وتمد أصبعها ليلامس أصابعي من فتحة ضيقة أسفله لحين غفوت أنا بالداخل وهي بالخارج يفصل بيننا باب ويجمعنا صوت وأغنية.

كنت سأطلب منها الأغنية ذاتها وإن بقي الباب مغلقاً للأبد..!

أحتاج أن أتحدث لي..

لأناي

لنفسي

أحتاج أن أخبرني بسر أعرفه

أكذب وأصدقني...

وأبكي وأحتضنني..

أحتاج أن أكون معي فلا أحد هنا.. ومن سواي يهمني!

ماذا لو بقيت وحدي؟!

أستند على حائط السهر

أغني بصوت عال ولا أسمعني

أكتب للهواء

للريح

للغيم

للسماء

لكل شيء يأخذني بعيداً عني

لأتشكل على هيئة مطر

أحتمي مني حين أهطل

وأرقص حين يبللني المطر

هذا الشبح لا يشبهني

أنا لا أعرفني!

«إن الموت هو الحقيقة الأعمق والأكثر دلالة في الحياة نفسها، لأنه يأخذ بالإنسان فوق ظواهر حياته اليومية السطحية، إنه الشيء الوحيد الذي يجعلنا نفكر في معنى الحياة ذاتها، والحياة نفسها لا معنى لها إلا في دلالة الموت»

نيكولاس بيردييف

▎ عندما نكون صحبة مع الذين سبقونا بالموت مع الذين ينتظرون الموت والذين قد ماتوا ولم يعلن عن وفاتهم بعد لأنهم أحياء.

نصل لمرحلة الرضا كوننا أمواتاً عدنا بأجساد غير مرئية..

تذكرت كم مرة كنت أزاول مهمة الموت.. عندما أتوقف عن التفكير وعن الإنجاز وعن المهام التي تنتظرني على عتبة كل مساء.. عرفت أننا نموت حينما نفكر بالموت حينما يكون هو الواجهة الأمامية لحياتنا حينما نخاف منه دون العمل له وكأنك تعرف أنك ستسافر يوماً لوجهة مجهولة تحمل هوية مسافر.. يبكي الجميع لوداعك وبمجرد أن تصل يعتادون غربتك وغيابك.

عرفت أن ميلا كانت تستعد لهذا السفر ولم تنجُ من كونها شبحاً يحوم حول المنازل يشتم الذكرى ويقتات على الصور.

جسد لزج كمادة هلامية تندس من ثقوب النوافذ والأبواب..

ميلا تعيش وتعرف جيداً أن لا سفر آخر ولا وداع ولا غربة ولا خوف.. هذا ما تحاول أن تقنعني به.

أنا ربما أتقبل واقعي وأبدأ أفتش عن الحقيقة التي أعرفها.. حقيقتي أنا نجد ما قبل الموت.. الطفلة التي تغار من أختها وتكرهها تدس أشياءها وحتى ابتسامتها بجيب قلبي دون أن تعترف بهذا لها وبالمقابل كانت تقدم فيصل دائماً للعب مع أطفال الحي بعد العصر لتخبرهم هذا أخي تقف خلفه لتشعره أنها سعيدة أن لديها أخاً وسيماً كفيصل ولم تنظر لإعاقته كانت تكتفي بأنه موجود وتفخر بهذا.

وأتجاوز الطفولة لأفتش عني كشابة لم تعد تكتفي بتقليد والدتها بل تلصق صوراً لنساء شقراوات وتتابع المسلسلات المدبلجة التي تقدم لك الحب المعلب بعيداً عن واقعنا..

أبحث عن تلك الوجوه التي لم تسلط عليها الأضواء وكانت عظيمة بما يكفي لتكون بحياتي..

عن العجوز التي تزورنا مع قطتها بمساء كل جمعة تعرفنا جميعاً ولا نعرفها ونرحب بها ونقدم لها الحلوى الممتلئة بالسكر الأبيض تلتهمها مع كل الأسرار التي تسأل عنها وأمي لا تجيب..!

الحقيقة التي كبرت مع نجد وكانت أمامها كالخطوط العريضة التي تأبى أن تراها..

هل من السهل أن تبحث عن حقيقة ميت بكومة قش من

(ذاكرته) و(ذكراه)!

▌ الساعة الآن الثامنة صباحاً

هذا ما أخبرتني به الساعة المعلقة على ظهر الحائط ولا أعرف هل هي على صواب أم انتهاء عمر البطارية يجعلها تكذب رغماً عنها..

الشمس بمنتصف عيني تدعو جسدي الميت أن يأخذ قسطاً من نور حتى لا يتعفن.. أمد يديّ للشمس وأرفع رأسي للسماء.. أتدلى بنصف جسد من نافذتي وكأني أنفذ تهديد أخي فيصل بالسقوط..

أرفع شعري بكلتا يديّ وأصنع منه كعكة غير شهية بالطبع.. أشتم رائحة الطين بين منابته.. أغمض عيني بارتجافها وأدعو أن لا أجد ميلا بغرفتي الآن فوحدها من تذكرني بحقيقة موتي التي ما زلت أكذبها.

- إنه ديسمبر.. صوت ميلا خلف أذني تماماً

- أكره وجودك ميلا

- لا بأس أنا أحب وجودي

- اختاري صديقة غيري تناسب عمرك أقصد عمر موتك فلا تزال روحي طرية حديثة موت

- لقد مضى عام على وفاتك يا نجد

- لا تكذبي..

أقولها بصوت يختنق انكسارا..

- الكثير تغير تعالي لأثبت لك هذا..

- إلى أين.. أقول لها دون أن ألتفت

- خارج غرفتك.. للصالة لبهو المنزل للمطبخ وغرفة المعيشة للشارع المقابل وربما لبيتي لسارة لآخر الطريق لمنزل عجوز الحي

- أرفع يدي بأن توقفي يكفي إثارة.. ما عاد هناك ما يثير فضولي

ماتت كل فصولي..

سهلة الإقناع أنا أشعر بحجم حماقاتي الآن...

ها أنا قررت أتجول بمنزلنا لأسترق السمع وآكل من بقايا الأكل المكشوف وأنثني بين الزوايا لأختبئ وأثير الرعب بحركتي.. كالحشرات التي تصدر صوتاً عالياً رغم تفاهة حجمها.

الآن يمكنني أن أسترد ألعابي وقطع الشكولاتة وأشيائي وحتى فستان زفافي من غرفة أمل..

كنت أبحث بين القطع المتبقية بدولاب ملابسي عن ثوب أبيض.. كنت أحتاج أن أبدو كـ ميلا بثوبها وخفة تنقلها أريد ثوباً أبيض ولكن لا أريد أن تتحول أطراف جسدي لبيضاء كقطعة جليد ولا أريد وجهاً قد امتصت آخر قطرة من دمائه فصار لونه أبيض مخيفاً..

أمسكت بيدي ميلا وهمت بالخروج وهي تقول لا داعي لثوب

أبيض.. بقدر حاجتك لتوخي الحذر حتى لا يشعر بحركتك أحد .

كنت أنوي فتح الباب ولكنها اخترقته بجسدها وصارت بالجزء الآخر بالخارج دون عناء .. كانت فكرة مؤلمة أشعر أن هذا الخشب سوف يبقى بين أضلعي إن اخترقته بهذه الطريقة وربما يعود لأصله.. كشجرة مثلاً!.

فضلت أن أكون إنساناً حيّاً يمارس آخر فضوله باكتشاف كيف تفتح الأبواب كطفل تعلق على مقبض الباب وظل يتأرجح..

كنت أريد أن أستعمل الباب للغرض نفسه الذي صنع من أجله أحترم الطبيعة وأحترم إنسانيتي بالخروج لكن حال دون ذاك الأقفال التي أوصدتها أمي برجفة وخوف..

نظرت لي ميلا وكأنها أدركت حجم حماقتي حينما تكون شخصاً خارقاً وترفض هذا.

قالت:

- أغمضي عينيك وأنا أقوم بإخراجك مسحت بأصابعها على عيني وكنت أخاف أن تخترق أحلامي أيضاً ..

اقتربت من الباب واشتممت رائحة الدهان الرديء اللامع تذكرت أني أعاني من ضيق تنفس وحساسية صدر. فكيف لم تخنقني المقابر إذاً!

فعلتها.. وعبرته

لحظة اختراقي الباب كنت أسمع كل الطرقات التي نالها، طرقات الفؤوس والمناشر الخشبية والأيدي التي مسحت عليه منذ صنعه حتى هذه اللحظة وكل كف كان له حكاية وجع والقليل من الحب.. عرفت أن الأشجار تصرخ حينما تقطع إني أسمع صوت عويلها الآن وكيف فعلت بها كل الأدوات الحادة لتنحت وجه حقيقتها سمعتها تبكي لفقدان عينها ومرة أخرى لذراعها.. لا أعرف كيف تبدو أعين الأشجار ولكن كنت دائماً أعتقد أن الأغصان هي أذرعتها التي تنمو فوق كل شيء حتى رأسها.. أسمع جيداً لطرقات فيصل عندما كان يهز الباب بقدميه ويديه ورأسه أحياناً حينما يكون غاضباً ولا أعرف سبب هذا.. ربما كان يشعر بما أشعر به..

تجاوزت الباب وكل حكاياته التي بداخله لكنه ترك غصناً حادّاً بداخلي أشعر بوخزه الآن..

وجدت نفسي خارجاً وكأني عارية تماماً وكأنما ابتلع الباب ثوبي وظل معلقاً على أحد أغصانه ليجف أبحث عن ما أستر به نفسي.. فكفاي ما عادتا تجديان

أرفع رأسي كانتباه طير يخاف من أن يصطاده أحد ينظر بكل الاتجاهات ولا يطير

أنظر لميلا وهي تمشي منصوبة الأكتاف لقد اعتادت على هذا.. أقولها كشتيمة

أحني ظهري راكعة أحضن صدري وأتكئ على أطراف أقدامي تارة.. وتارة أركض ركض الخائفين الركض الذي يجعلك تنتعل نبضك وتتعثر بالهواء وتختبئ بمكان مكشوف تلتفت لي ميلا وتشير لي أن أسرعي.. وأجيبها بالإيماء أن لا أستطيع.

عرفت أني لم أكن أركض تُجاه شيء وأن كل شيء كان يعود لي ليحرضني على الركض وبالطريقة نفسها..

تجاوزت أخيراً الممر الطويل المثقوبة جدرانه بالأبواب من كلتا الجهتين.. المزيد من الأبواب المزيد من الحكايا التي لا تطاق.

غرفة أمل ثم فيصل وبابان لغرفة أمي وأبي كلما مررت من باب شعرت بالغصن الذي بداخلي يحن لفصيلة وربما هذا الوخز يجعلني لا أكرر تجربة عبور الأبواب لأنها موجعة للباب ولي أيضاً..

وصلت للدرج الذي تجاوزته ميلا الشبح هي تحفظ ممرات منزلنا أكثر مني، هذا ما يبدو لي..

أمسك الحديد المتشكل على هيئة زهر.. المطروق بالنار واللهب ليكون زهرة صامتة سوداء كان محاذياً للدرج وكأنه يخلق لنا حماية صنعت بقسوة.

أقف على آخر السلم أعد الدرجات بعيني وأقول لها لقد انتهت رحلتي حينما حملتني لهنا. عندما كانت أمي تخاف علي من تسلقك

من زحفي الذي أضع فيه أكفي الصغيرة الممتلئة بالدهن الشهي على الدرجة الأولى وأنظر للأعلى وكأنها ستأخذني للسماء ستوصلني لأبعد من هذا..

أتذكر أولى خطواتي بمقاس أقدامي التي لم تتجاوز العشرين مدورة الأصابع قطنية الملمس.. أضع قدمي الأولى وأستند على هذا الحديد المحاذي لأرفع قدمي الأخرى بجانبها.. كانت أمي تقف خلفي مباشرة تحاذي أقدامها أقدامي وكأنها تتعلم الصعود للمرة الأولى مثلي.. كنت أيضاً أنظر للأعلى للمفاجأة التي تنتهي بهذا السلم.. لم أكن أعرف أن نهاية السلم يقف شبحي خائفاً من مغامرة النزول..

فكرت أن أبدأ من جديد أزحف مستعينة بأطرافي الأربعة ثم أكبر لأستخدم أقدامي.. لأقف ولا أجد من يحاذيني..!

أمي أنا خائفة مني

هل تسمعينني..؟

تشير لي ميلا بيدها النحيلة أن أسرعي. هل صادفت هيكلاً يومئ لك من بعيد؟!

الخوف يدفعك للركض أحياناً.. ركضت حتى تجاوزتها وتجاوزت المطبخ وغرفة الضيوف وعند مروري بغرفة جدتي توقفت ومشيت بتثاقل وسألت ميلا هل جدتي هُنا ربما عادت منذ زمن وربما هي تنتظر من يفتح لها الباب مثلي..

تبسمت ميلا وأمسكت بيدي وأكملت خطواتها تجاه الصالة إنه وقت الأحاديث الصغيرة حيث تجتمع العائلة وينقص شخص منها كعادة الاجتماعات لا تكتمل..

ما زلت ألتفت إلى غرفة جدتي وأنا أردد بداخلي.. سأعود لزيارتك لاحقاً دون الحاجة لمفتاح أمي..

▌ غرفة المعيشة كبيرة توسطها مجلس بطراز شرقي قاعدته خشبية عليها منحوتات كلمات متقطعة، أذكر كم مرة حاولت تهجئتها وفشلت.. وكنت أعيد الكرة بكل مرة إلى أن اكتشفت مؤخراً أنها مجرد أحرف جمعت لتعطي شكلاً جماليّاً، بالواقع توقفت عن التحديق بها منذ أن عثرت على كلمة أحمق فعرفت أن وراء كل تحديق هو حماقة لا أكثر

على أحد جدران الغرفة رف خشبي نحيل فوقه خزفيات صغيرة وأطباق زجاج مدورة كانت أمي تخفي البان بأحدها وبالآخر كان هناك خيطٌ أسود وإبرة وكأنها تحتاج دائماً لرتق الأحاديث حينما تشتد بيننا لنعود لذاك الثوب العائلي الذي يضيق كثيراً من ياقته بحكم العادات والعيب.

رائحة البخور هادئة هنا تستخدم أمي بخور خاصّاً وتخلطه بالجاوني وهو حجر أبيض صغير يشبه المستكة يصدر صوت مفرقعات حينما يلامس الفحم المشتعل.. تقول أمي إنه يطرد النفس والجان.. الحمد

لله أنه لا يطرد الأشباح وإلا اختنقت هنا.

هناك كرسي منفصل يتسع لشخصين لكنه يتسع لي فقط فلقد كنت أجلس عليه في منتصفه وأكره المشاركة.

لم يجرؤ أحد أن يأخذ مكاني هنا حتى عندما أكون بالخارج وعندما أتغيب كعادتي عن الاجتماعات الأسرية فبها الكثير من الكلام والمبادئ والوعود والقليل من التنفيذ..

كان هذا الكرسي لي دائماً.. ظننت أنه سيبقى كما هو لي لا أحد يجرؤ على الجلوس عليه.. كيف يجرؤ أن يسلب الموتى حق ذكراهم بلا تقديس أو حتى احترام! أقول لميلا وأنا منفعلة عندما كانت تجلس أختي أمل ويشاركها إياه شاحنها المتنقل.

كنت أعرف أن أمل تريد فرصة للعبور من أشيائي التي أحب لتحظى بحب أسرتي وكأنها تريد أن تمحو من ذاكرتهم حتى وجودي..

أشد على يد ميلا بقوة لأغادر

تنظر لي وتشير لي بالتأني..

يتحدث والدي بصوته الجهوري الذي يخترق قلبي حبّاً وهيبة.. عن مشروعه الذي يخطط له من أعوام وينوي البدء به بكل عام جديد ولا أعرف ما الذي يجعل والدي يتردد دائماً ويخاف الخسارة..

أنظر لفيصل وهو ممسك هاتفه ويكمل اللعبة التي لا يعرف نهايتها.. وكنت بكل مرة أكمل عنه ليصل لمستويات أعلى وكأني أدفعه دون أن يشعر.. حسبت أن فيصل لن يستند بدوني..

كنت أحاول أن أعرف أي مستوى وصل وأود أن أشير له بيدي لأخبره بالاتجاه الصحيح.. ولكنه تجاوز كل المراحل ووصل لطريق أجهله أنا..

أتعاطف جدّاً مع فيصل وكأنه ابن قلبي.. وربما سيتعاطف مع حقيقتي هو أيضاً..

تقضم أمي المكسرات بصوت عالٍ مستمتعة بالمحمص منها

فإصبعها يجول بالصحن ليبحث عن نكهة الباربكيو.

تحكي عن أخبار متفرقة عن ولادة جارتنا لابنتها الخامسة.. تجعد حاجبيها حزينة لهذا وكأنها ولدت بعيراً وعلينا تقبل هذه المأساة.. تحكي عن الطبق الذي ستعده كمواساة عظيمة بكل مرة أنجبت فيها من المرات الأربع السابقة ولا تنتظر الشكر من هذا وتبتسم.. أبتسم معها الآن وأخيراً تقبلت خبر الطفلة الخامسة أقصد الرحمة الخامسة للجارة المحظوظة.. نعم نحن النعيم الدائم ها أنا شبح ومازلت أحبك يا أمي.

ثم تواصل حديثها عن عامل النظافة الذي يتعمد إعادة حاوية النفايات لمكانها بعد كل مرة تبعدها أمي بمساعدته بعد بقشيش مجدٍ عن زاوية منزلنا..

تتكلم وكأن الموضوع أصبح اعتياديّاً هي تصر وهو يؤدي عمله.. وربما احتاج للبقشيش أيضاً.

ثم تتلفت لأمل لتخبرها بموعد خروجهم ليكملوا باقي التجهيزات..

هنا نظرت لميلا

وكأني أسألها أي تجهيزات هذه..؟!

قفز لقلبي سريعاً حكاية نظرات ماجد التي ارتبطت بها وعقدت قران الحب بينهما..

لاحتضانها لي وهروبها لغرفتها عند سماعها خبر خطوبتي منه!.. أحس بوجع بنبضي وكأن علي أن أحسب عمر نبضاته من الآن.. ها هي تفوز بماجد بعد موتي وأيضاً بفستان عرسي وكامل تجهيزاتي وربما حتى بالمنصة التي اخترت حكاية الورد الذي سيتدلى منها والمنضدة التي تعود بطرازها للستينيات الطراز الذي فتنت به.. وقررت أن يكون هو أول مكان ضيق يجمعني بماجد والذي صنعه ماجد بنفسه وتابعت صنعه وكيف يمسح بيده على الخشب ليتأكد من جودة سنفرته وأغار على كفيه بكل جدية..

للموسيقى التي اخترتها لحظة زفافي موسيقى فلم التايتنك الممتلئة بالشاعرية والحب لم يطرأ لي أني أنا من سيموت متجمدة ويبقى ماجد على ذاك اللوح يطفو، اخترت الطفلة التي تحمل سلة من الورد والعطر تنثره أمامي والحمام الأبيض الجائع الذي سيحلق فوقي.. يظنه الجميع يرفرف فرحاً لا جوعاً وذعراً

التفاصيل الصغيرة التي أخبرت بها أمي فقط لا بد أنها أفشت بها لأمل ليتسنى لها أن تكون عروساً تليق..

عن خطواتي ووقعها عن نظراتي عن الورد الذي أجمعه بين كفيّ عن ابتسامتي لماجد وللحضور عن الهيبة التي أخبر بها أمي أني فتاة مطيعة تمشي بهدوء بليلة عرسها ولا يحق لها الرقص..

لقد كنت مطيعة وهادئة جدّاً حينما مت وتركت كل التفاصيل لهم..!

تشير لي ميلا أن حان وقت العودة لغرفتي كنت أسير بخطا ثقيلة وكأن هناك عربة محملة بالصخر مربوطة بأقدامي.

رأسي يتدلى والعرق يتصبب من جوانبي من بين أصابعي والتي تدعوني للانتقام من أمل وربما من نفسي التي ماتت وتركت أسرارها الصغيرة دون رعاية ولا وصي..

وصلت لغرفتي ولم أشعر بوخز الغصن الذي تركه الباب بداخلي..

دون أن أنحني لأحملني دون أن أركض خائفة مني.

وصلت لغرفتي وحيدة ودون ميلا أيضاً..

أين يذهب الأشباح بهذا التوقيت..؟!

تمددت وفردت ذراعيّ فتحت فمي للسقف للأحلام لأي شيء يجعلني أنام ولا أشهد عرس أمل على ماجد..

أحاول أن أكون بخير..

أن أظهر بالشكل الذي يليق بنصف أنثى تخلت عن نصفها

الآخر حينما مات غرقاً برواية غياب قديمة..!

نحن لا نسيء لأنفسنا بهذا الاعتراف بل نحاول أن نخلق نصفاً

آخر يجيد السباحة..

أرى فيما أرى

لم لايحق للأشباح العودة للحياة دون خوف.. لمَ الأموات سموا أمواتاً لمَ لا يكون الأحياء أمواتاً ونحن أحياء ما الذي جعل المسميات هذه تعطيهم حقوق التنقل والأكل والتزاوج والحب.. لمَ لم تنقطع أعمالهم..!

لمَ لا أستطيع الصلاة ربما كنت سأجد مخرجاً من نفسي وأعود أتوسد قبري برحمة ربي وأنا معي صلاتي وعملي

جميعنا مثقوبون بالظنون والشكوك والكراهية والبكاء الأحياء والأشباح والأموات أيضاً..

بدأت أفقد توازني، هذا الدوار الذي يأخذني بجولة بالغرفة بزواياها الصلبة والسقف الذي يحمل صدعاً قديماً يحتفظ بداخله بكل أحلام اليقظة والذي أشعر أنه يوماً ما سيتحول لفم وينطق بها.. كتهديد أعيشه كلما أخذتني أحلامي الممنوعة بعيداً التي أجرؤ عليها

فقط باليقظة لأكون بكامل قواي الروحية وليست العقلية كل المرايا هنا تحمل وجهاً لا يشبهني.

ورغماً عني أسأل كيف لو عشت حياتي مجنوناً؟!

ربما أموت مجنوناً ولا أعود كشبح يعيش الجنون والحياة معاً..

لم أسمع عن فصيلة الأموات من قبل.. كيف تحيا وهل تستخدم أقدامها للجري كمثل الأحياء أم أنها تستخدم اليدين عوضاً عنها.. ربما لهم خوارق للعادة.. أقولها وأنا أتحسس صدري وكأن العود الخشبي بوخزه يذكرني أن لنا خوارق كعبور الأبواب المغلقة حينما تتحول أجسادنا لمادة هلامية بقدرتها أن تنزلق عبر قفل الباب لتكون خارجه.. وربما بالمرة القادمة أفكر أن أنزلق لقلب أحدهم أكشف عن مكاني به ولكن أخاف أن تخنقني رائحة الدماء فالبعض يحتفظ بمن يحب بمكان آخر.. ربما بهاتفه المتنقل..

أعتاد كل من يعرفني أن يرحل بصمت لأني أجيد قراءة الوجوه لا الرسائل.. فكان انخراطهم من حياتي ليس مكلفاً هو يحتاج لمواجهتي فقط وهذا مايجعل البعض منهم يفكر بالهروب لا الغياب.. عليهم بابتكار طريقة جديدة بالخذلان.

بهذه التساؤلات أنا أمارس قلقي الخاص.. القلق الذي لن يعرفه أحد غيري ولا يسعني التحدث به

تعودت أن أتحدث لنفسي عن أشياء صغيرة وكنت أشكو لنفسي فقط عن ضحك أبي وأمي وفيصل من مخاوفي وقلقي

عندما أخاف الأبواب المغلقة والنوم وحدي وأخاف الدوران والأماكن العالية والضيقة ثم إني أكره رائحة النعناع ويستفزني صوت مضغ الطعام وفرك الأصابع عند التحدث وقضم الشفاه دون داعٍ أيضاً أكره واجب العلوم عندما يعلمني مراحل نمو الحشرة كاملة وعندما أنتهي منه أدوس على إحداها بطريق الخطأ فتموت تحت قدمي دون أن أقصد هذا.. فلقد عانت هي وأنا.. بكل مراحل نموها ثم تنتهي بهذه الطريقة!

ونسيت أن أخبركم أيضاً بقلقي من شجرة السدر التي ولدت معي وكبرتني بأعوام..

حينما يحين الليل كيف يتحول الورق المتضخم فوق الأغصان المنعكس على الجدران، لجنية تتحدث معي من النافذة وصوت تكسر

أغصانها مع الريح أسمعه كضحكات عالية تهزأ من إغلاق نوافذنا خوفاً من الأتربة ومن صراخ خادمتنا جوزالين وتضجرها..

ومن نعاسها بالصباح بعد أن يهجرها الطير ويترك أعشاشه..

قلقي هذا كان وحده من يثبت لي أن الحياة تسير وفق رغباتي وأنها متسعة لأعبرها بهذا القلق وبكل مخاوفي..!

هناك ثلاث أغانٍ بفمي لم أغنِّها بعد

لكن أمضيت عشرين عاماً أبحث عن لحنها

وعندما بدأت بالغناء

لم يسمعني أحد

كنت على وشك أن أكتبك كسمفونية خالدة

كعمر يبتدئ بقصيدة ولا ينتهي

كسنبلة زرعتها على كتفي

كحبل ممتد من السماء يتدلى لي كلما قلت يا رب

كرواية لا يموت أبطالها..

كتبتك بنهاية مفتوحة

كتبتك بسطر ممتد

لا فاصلة تفصلني عنك

ولا نقطة أنتهي بها

لا كسرة تكسر روحي

ولا شدة تجعلني أصمت قليلاً

كتبتك سكوناً وفتحة

مدّاً وحرف وصل

كتبتك أغنية لتبقى..

هذه رسالة تأتيك من ميت لا لتفزعك وتبكيك

بل لأسألك

كيف لي أن أغني الآن..!؟

بكل صباح أفتح فمي أتكلم لأقول صباح الخير على سبيل المثال.. أفرد أصابعي العشر وأعدها.. أمد أقدامي وأقلبها نصف التفافة.. لأتحقق أن الدود لم يلتهم مني شيئاً حتى الآن..

أفكر كيف أن أكون هنا.. بمكان لا أنتمي له وانتهت علاقتي معه.. وبالأحرى لا أجدني بواقعه.. وفي الوقت نفسه أنا لا أنتمي للمقابر.. هذا الشتات الذي بداخلي يجعلني أبحث عن ميلا وأكتشف أنها لم تزرني منذ ثلاثة أيام.. هل يعقل أنها ماتت موتاً حقيقيّاً ولم تنتهِ حكاياتها معي ومع هذا المكان!

ثم ما الذي يجعلها تموت مرة أخرى أظن أنها تحيا بلا دماء تتنقل بين الشوارع دون أن تدهسها سيارة البلدية ولا حتى دراجة عامل البقالة الذي يوصل طلباتنا مجاناً للمنزل بمقابل أن يحظى ببعض الحديث مع جوزالين التي لا تجمعه معها أي فصيلة عرق ودم.. سوى أنهم جميعهم أحياء ويمارسون الرذيلة.. كنت أشعر بهذا ولم يصدقني أحد..

الشعور وحده لا يكفي لتثبت أنك على حق ولا حتى القسم يجدي عندما يعتاد منك الكذب..

كنت أكره جوازلين وما زلت أجهل هذا..

أسمع صوت خطواتها الآن وهي بطريقها لفتح الباب وأخذ الأكياس من العامل.. الأكياس الممتلئة بطلبات أمي المتكررة لعمل كعكة القرفة لوالدي بعد العصر..

أطل من نافذة غرفتي ولا أتوخى الحذر فأنا أثق تماماً أني جسد غير مرئي... فقط ممتلئ بالخوف..

تفتح الباب على مهل وتأخذ الأكياس لتعطيه ظرفاً أبيض بيده يدسه بجيبه ويمضي وأقول بنفسي لا بد أنها رسالة تخبره بموعد اللقاء سأحاول كشفها لوالدتي هذه المرة.

أنظر لها وهي تتفحص الأكياس بجسدها الممتلئ وأكتافها العريضة وفرق أبيض بشعرها يشطر رأسها نصفين

ثم فجأة ترفعه

لتنظر للأعلى

لنافذتي

إنها تنظر لي أكاد أقسم على هذا.. تبتسم لي بنصف ابتسامة وتمضي.. نظرتها هذه جعلتني أعد خطواتي للوراء وأسأل هل من الممكن أن تكون فعلاً رأتني ثم إن كانت فعلاً فعلت هذا فلمَ لم تصرخ خوفاً أو حتى تحتضني..

بدأت أشعر أني ربما شفيت أطرافي من الموت وبدأت ملامحي تظهر شيئاً فشيئاً.. أبتسم ابتسامة متقطعة وكأني أستمتع بهذا الاستنتاج.. وأسمع خلفي قهقهة سخرية لتقول:

ومن يُشفى من الموت يا نجد.

- إنها ميلا

أخرج آخر هواء تبقى بصدري لأزفره بوجهها وأمضي لسريري..

- هيا لنكمل.. رحلتنا خارج الغرفة ألا تشعرين بالرغبة بهذا؟

- أجيبها لا.

تصمت هي

أنهض أنا.. لأقرر سريعاً

غرفة أمل.. نعم غرفتها من هناك أبداً..

مرت من أمامي تلك البعوضة التي أنظر لها بحجمها العملاق لا الدقيق الذي كنت أستهين به وأفركها بإبهامي وأمضي..

إنها الآن تسبب لي تهديداً مباشر إذا امتصت من دمي وعادت بقبيلتها لتسكن فوق جسد ميت بمذاق الدم البارد.. تجعلني أتجنبها أرسم دوائر بالهواء لأبعثرها لأركض خلفها ليس لأقتلها لأني ببساطة أخاف أن تعود لي كشبح يسكن معي ويقتات على دمي..

هذه الحشرة تفسد يومي لهذا أحاول أن أجعلها تبتعد عني وأن تبحث عن جسد آخر بدم دافئ لا يحمل جينات سامة.

عندما خرجت من النافذة وطارت بعيداً ظل نظري يتبعها كيف لها أن تختار أين تذهب دون قيود تخرج من النافذة من الباب من بين أصابع أحدهم ولا أحد يسألها لَمَ اخترت هذا. كنت سأعقد معها صفقة خاسرة بأن تعلمني على الطيران وأن تمنحني هذا الجسد الدقيق لأختفي به من هنا ومن ميلا..

ميلا

هل تمنيت أن تكوني بعوضة يوماً ما..؟

ألتفت ولا أجدها ربما سبقتني برحلتها ولغرفة أمل...

لقد قضيت عمري وأنا أتبع قراراتكم وأحترم خصوصية الأبواب

لقد حان الوقت ليحترم الجميع قراري

قررت أن أخترق عزلتكم..

أنا هنا أمام باب غرفة أمل.. أمسك مقبض الباب وأشعر بكفها فوق كفي وهي تحاول فتحه كما تفعل دائماً.. عندما يتمدد الخشب بفصل الشتاء ويحدث ضجيجاً وأزيزاً عند فتحه وإغلاقه وكأنه يتثاءب بطريقة مزعجة..

أتردد.. أرفع يدي. أرجع خطوتين للوراء.. وأتذكر قراري وأعود

تطل لي ميلا من منتصف الباب ما بين الإطار والإطار تسبب لي فزعاً وكأنها وحدها الشبح هنا ووحدي من يراه.

تدعوني للدخول أتقدم خطوات وأنا مغمضة عينيّ وأضع يدي على صدري وأحاول البسملة والاستعاذة من ميلا ومني لكن تبقى يدي عالقة ولساني لا يردد سوى تمتمات لا أفهمها..

أشتم رائحة عطر أختي قريباً من أنفي لدرجة ظننت أنها تقف بجانبي مما هالني وجعلني أفتح عينيّ وأحدق بكل اتجاه.

لكن لا شيء سوى غرفتها المرتبة وأعواد من الخشب تحترق وهي تغني للعطر وللهواء وتنفث الرماد وتعاود الاحتراق..

سريرها تحت النافذة مباشرة رغم أنها قالت لي مراراً إنها تخاف الكوابيس من شجرة السدر هذه.

كنا نتشارك المخاوف ذاتها ولكن الفرق أنها تتحدث عنها بصوت عال وأنا أكتبها وأجعد الورقة لأتخلص منها كمشكلة انتهت.. وبالواقع هي تتبخر دائماً لتعود وتلتصق بي.. وهذا ما جعلني أقول لها.. واجهي مخاوفك واستسلمي للأحلام أقصد الكوابيس لا تهربي منها.. نامي تحت النافذة مباشرة.. وبالواقع كنت أود أن أستلذ بكل ما ستناله من هذه الأحلام المفزعة..

الآن يبدو أنها استسلمت لمخاوفها بعد موتي ولكن ما الذي جعلها تفعل هذا بعد رفض طويل!

هناك تجلس وهذا ركن القهوة الذي صنعته بنفسها.. كانت تحب الأعمال الخشبية وربما هذا ما جعلها تعجب بماجد أكثر.

ثلاثة رفوف ممتلئة بالأكواب والقليل من القهوة... كانت تصور حتى تبرد القهوة فيشرب كل متابعيها على مواقع التواصل إلا هي تعود لتسكب ما تبقى من برودته وتكتب لقد استمتعت بمذاقها المر..!

هذا ما كنت أكره بأمل.. حينما تكذب كثيراً لتبدو أجمل.

اقتربت من أدراجها الثلاثة.. الممنوعة اللمس أكاد أقرأ هذا بعينيها كلما اقتربت من الدرج الأول لتسبقني هي وتحميه بظهرها وتواجهني بصدرها كدرع بشري يحمي آخر ما يملك..

الفضول والشكوك نفسها ما تدفعني الآن لأعرف ما الذي تخبئه أمل هنا.. أملك يداً شفافة تخترق الخشب وربما أنحشر بكامل جسدي بداخل هذا الدرج دون أن أختنق

أدخل أصابعي..

الوسطى ثم السبابة ثم البنصر أحركها بخفة لعلي أتحسس شيئاً يدلني قبل أن أدخل بقية أصابعي وكفي فالخشب لا يوجعني بقدر ما أشعر بالهلع مما أفعله.

يكاد المكان يكون خالياً إلا من ورقة لها حوافها من ورق مقوى ربما هي صورة أو شيءٌ من هذا القبيل مددت يدي لأخرجها.

فكانت صورة لامرأة جميلة تلف على رأسها وشاحاً حريريّاً أحمر مرقطاً بالخضرة وترتدي ثوباً يدل على أنها من قرية وغير ميسورة الحال وكأنها تعمل بالفلاحة هذا ما استوحيته من الصورة ومن الأقدام والحذاء المهترئ ومن الخلفية لبيت أكله المطر والسنون ربما هي أمل بعد أعوام فلقد كان شطر منها بالصورة..

كتب على ظهرها.. (الحياة بالسعودية هي مصيرك الأخير واجهيه.. هذه الحرب لن تبقي أحداً.. أما أنا فولدت هنا وأموت هنا ولن أنجب غيرك فلقد تزوجت من رجل أحبه وخذلني عند أول مفترق طريق.. أنا أحب والدك يا أمل وأحبك).

لا أعرف لَمَ يرتجف صدري وكأن هناك زفيراً ضخماً نتناً سيخرج من أنفي وفمي معاً يدفع بالدمع خارجاً..

لا أعرف ما الذي فعلته طوال هذه السنوات بأمل..

لا أعرف كم مرة لمزتها بالكلمات الجارحة أن أمك تزوجت بآخر .. تفرغت لسعادتها وأرسلتك كطرد بريدي وبدون وردة ورسالة.

وكم مرة أخبرتها أن أمي لا يشبهها أحد بعطفها وحبها وحنانها وتضحياتها.. كنت أقولها وأنا أنظر لها بنصف عين وأقذف بقايا حب اليقطين أمامها ليلتصق بوجهها أحياناً..

لا أعرف كم مرة ركضت أمل لغرفتها بدمعها وحيرتها. وحين أخبرها والدي بآخر اتصال من خالها ويطمئنها أن والدتها بخير وستنجب أخاً لها وربما الأولى أن يطمئنها بأن الحرب ستنتهي ويحق لها رؤيتها من جديد..

لا أعرف كيف لم تصرخ بوجهي وبوجه أمي ووجه أبي لتخبره بحقيقة والدتها وأن الأم حينما تضحي فهي تفعل المستحيل.. ربما أمل كانت تختار أن تكون مع أمها بكل فصولها.. ببردها وجوعها وعرقها وبكائها وخوفها.. ربما أم أمل اختارت مصير أمل ولم تسألها ما إذا كانت ترغب أن تلبس ما خاطته والدتها من حلم وكان ثوباً

يرفل جعل أمل تتعثر كلما حاولت الوقوف.. تتعثر بظنوننا وكونها ابنة دخيلة وإن كان لنا الأب ذاته..

لا أعرف ماذا أفعل الآن هل أحتضن الصورة وأعتذر لأم أمل أو أحتضن أمل وأبكي..؟!

▌ ما زلت هنا داخل مسلسل فكاهي سوف يتخلل الحكاية إعلان شكولاتة أو صابون غسيل لينسي المشاهد الغصة التي علقت بحنجرته والدمعة التي حاول الكاتب والسيناريست أن يجمعها..

أغلقت كل شيء وكأن الفاصل الإعلاني جعلني أشعر بسخف الحدث وأن الحلقة سوف تنتهي بعودة أمل من الخارج لتفتح الباب وتراني أمامها تبتسم بوجهي أو توبخني على تطفلي هذا.

أعرف أنني بداخل دمية سخيفة سوف تنمو أطرافي قريباً وأخرج منها..!

أنزوي وبيدي الصورة..

لا بالواقع بيدي أصابعي العشر فلقد جمعتها بكف واحدة..

أبللها بالعرق والدمع وأنفث عليها وكأني لاجئة تخاف البرد والموت.. أنفث عليها وأرتجف.. تنظر لي ميلا وللمرة الأولى يصل لي شعور الأموات.. كانت تقف وتنظر لي بصمت وكأنها تنتظر أن أنتهي من هذه النوبة لأنهض وأخرج من هنا وقبل أن تأتي أمل.

وماذا لو جاءت أمل يا ميلا أنا لستُ هنا لست هنا... لهذا دعيني أحيا لحظات تصفعني لتعيد لي ذاكرة الأحياء لتخلصني.

لم أجد لماجد أي وجود بأدراجها ولا على حواف الأكواب ولا حتى بين ملابسها حيث اعتادت أن تخبئ الشيء الثمين.

لأنها تؤمن أن لا أحد يسرق ملابس.. لقد فعلت هذا يا أمل نعم فعلتها..

ستتزوج أمل.. كل شيء يوحي لهذا بغرفتها أكاد أسمع وشوشات الجدران وهي تكتنز الضحكات بين ثقوبها.. عام واحد يفصل ما بين موتي وزواجها من أين جاء لها هذا الرجل العريس أقصد.. أزفر بوجع

لأقول إنه ماجد.. إنها الحكايات القديمة.. ستزف له بثوب عرسي بأساوري وحمرتي بالأغنية التي اخترتها لأقول له أحبك بالتفاصيل التي لم أخبر أحداً بها ووحده الموت من أفشى أسراري من جعلني حكاية معلقة ليقرأني الجميع.

نهضت فزعة من مكاني أبحث بهستيرية عنه..

وكأني سأجد ذراعه محشورة بين الوسائد أو أنفاسه محفوظة بقنينة على الرف..

كنت أحذف كل شيء أمامي أبعثر كل شيء

أبكي من لا شيء.. أبكي على كل شيء.

تمسك بي ميلا تحتضنني من ظهري ويداي تلوحان للريح وأنا أزفر الدمع بحرقة تطلب مني أن أهدأ وأن هذا الضجيج سوف يجعلهم ينتبهون لنا لم أخف من تهديداتها.. أنا ميتة يا ميلا.. لأجيد إلا الركض.. الركض فقط.

هل جربت أن تركض وقدماك معلقتان بالسماء..
أن تركض بممر ضيق لا يتسع لأكتافك
تخاف أن تتعثر بظلك ويرعبك صوت أنفاسك
أن تكون شخصاً تحمل هوية الموت وتسكن شبحك

هل جربت ركض الخائفين..؟!

▌ اسمي نجد

أعيش بمنزل والدي

بغرفتي تعيش معي ميلا المتوفاة منذ أعوام

لقد توفيت أنا أيضاً منذ عام

بكل صباح أركض لنافذة غرفتي أفتحها وأقف أمام الشمس مباشرة

أفتح ذراعي كي لا أتعفن

اعتدت على الركض بين ممرات منزلنا وبخفة مع ميلا

وجدت كل أشيائي المفقودة

فردة حذائي

وقلمي الذي اشتريته من رحلتنا للطائف حينها ظننت أن أحد القردة المتطفلة كسره وبقيت أتبعه بالحجارة يوماً كاملاً.

عثرت على السلسال الذي كنت ألفه حول رقبتي وسقط بالمجاري وأنا تحت صنبور الماء وظل معلقاً بحلقة تطل عليّ بالحنين

أخيراً استطعت أن أحشر أصابعي وأسترجعه..

كل المرايا تحمل وجهي وبكل مرة أصطدم بها ولا أعرفني.. ما عدت ألتفت لها وبكل مرة أهمس لها اغربي عن وجهي

الأبيض هو ثوبي الذي قررت ميلا أن تلبسني إياه لا يهم إن كان له رتق أو كان متسعاً أو ضيقاً بالواقع بالإمكان أن ألبس جواربي من رأسي.

لا شيء يوجعني.. أصبحت كائناً مزدوجاً كل الأماكن صالحة للعيش هنا.. أصبحت كالحيوانات التي لها أيدٍ طويلة وأرجل مرنة تتسلق كل شيء حينما تخاف.. وكالحشرة أدس نفسي بأي شق يتثاءب بوجهي.. أنام بدون حلم وأستيقظ بدون هدف.. أنا لا أجوع وآكل بقايا طعامهم فقط لأضحك وأنا أرى كيف هو مثقوب جسدي ليتسرب منه كل شيء ويتعفن من أي شيء.

للمرة الأولى أشعر أن صوت الأذان مبكٍ ومشوق ويحمل من الدهشة ما يجعلني ألتصق بالجدران وبالهواء لأستمع له.. ولكن لا أسمعه..

أنا لا أصلي

هل تشعر بالخزي عندما تقولها..؟

«كنت أعلم أن الموت ينتظرني..

لكني أحببت المبادرة»

بهذا كنت أفكر.. بالمبادرة..

بالعودة للقبر.. لعل أمي تستطيع العودة لغرفتي دون خوف.. ولتكنس جوزلين الممرات دون أن تلتفت وليخرج والدي للفجر دون الحاجة لأخذ مفاتيحه.. يكتفي فقط بجعل الباب مفتوحاً لحين عودته.. كنت أغلق الباب لأعرف متى تنتهي الصلاة.. هي تنتهي بعودته.

أمل لتفرح بيوم زواجها بماجد.. دون أن يشتعل فستانها الأبيض وتحترق كل الورود بغيرتي الحمقاء..

وماجد ليهنأ بعد هذا الغياب الاضطراري الذي جعله يصنع عموداً طويلاً من الخشب ويفكر أن يبيع مكتبته..

وأخي فيصل ليعبث كما يشاء دون أن يتحسس من يدي وهي تمسك كتفه ويفزع مرة ويبتسم مرة أخرى.

قررت العودة.. ولكن من يوصلني لهناك.

ألتفت لميلا التي تهز الكرسي بأطراف أصابعها النحيلة بعروقها التي أجزم أنها ممتلئة بالهواء لا الدم كعادتها وأسألها..

لتهز رأسها مع اهتزاز الكرسي الخشبي.. وتقول لا عودة.. أقفز من مكاني وأركض نحوها كنت أنوي قتلها لأتخلص مني.. لأكون أول من يرتكب جريمة قتل ميت دون أن يترك أثراً ودون أن تهتم السلطات لهذه القضية ودون حتى أن يقام عزاء ولا دفن.

آه يا ميلا

أريد أن أدفن أريد العودة أريد الخلاص

أقولها وأنا عاجزة

هل تشعر بهذا معي!

ميلا لا تشعر أبداً.. لكنها تفكر كثيراً وأعرف أنها ستقول لي ماذا علي فعله..

تلتفت لي

نعم هذه الشفاه النحيلة الزرقاء ستتحدث الآن..

- لنبحث عن زوبعة بنت دنهش

من هي زوبعة؟ أسألها وكأن هذه الزوبعة هي المخرج الوحيد..

تنويه أحمق :

الأحداث التالية إذا كنت تخاف فتجاوزها..

وإن كنت شجاعاً فإياك أن تصدقني..

▌ زوبعة بنت دنهش..

من عائلة إبليس الذين يسكنون الخرائب والمزابل.. عجوز لا يعرف أحد كم عمرها لها وجه مليء بالثقوب وكأن بكل ثقب يطل عليك رأس أقرع ليخبرك أنه يختنق هنا.. قصيرة تحسبها جالسة وهي تمشي ليست مرعبة كما تتخيل فجميع أهل الحي يعرفون أنها موجودة بهذا المكان قبل مجيئهم إليه.. الاعتياد أحياناً يخلق الشجاعة تسكن أطراف المدينة وتعرف الجميع.. تدخل بيوتهم وتأكل معهم وتتحدث إليهم.. لا شيء يزعجهم سوى رائحتها.. حتى سألتها إحدى نساء الحي تطفلاً متى آخر مرة استحمت بها.. وكان جوابها لا أتذكر.. ووجدو هذه المرأه غارقة ببئر منزل تحت الإنشاء لهذا توقف الجميع عن سؤالها أو حتى إتهامها..

تحكي لهم عن أساطير وحكايات.. يظن الجميع أنها وصلت من الخرف لدرجة أن تحكي أحلامها وكأنها واقع حقيقي.

ويظن البعض الآخر أنها تعيش مع غير بني البشر فكل حكاياتها ممزوجة بالخيال.. لم يكن يصدقها أحد سوى الفتية الذين تدهشهم المغامرة.. يلتفون حولها ويستمعون لها.. ثم يختفون ولا يعرف أحد إلى أين.. وكأن الأرض تبتلع دهشتهم.

تقول ميلا إن زوبعة بنت ملك من الأبالسة..

اعتادت زيارة المقابر وجمع كل الأرواح المتطايرة بقصر من الخراب يسكنه الكثير من الفتية والفتيات ولا يدخله طفل ربما لأنهم محاطون بالملائكة كما تظن ميلا

تقول إنها نجت بأعجوبة منه..

لأن عقابها الوحيد لهم.. هي إعادتهم للقبر ولا عودة منه إلا ليوم البعث.. كانت تصور لهم مدى الألم حينما يعاد خلقك من قطعة عظم صغيرة وتهيم مع جموع كحشد يأكل بعضه بعضاً..

ولأن هذه عقوبتها.. فلها القدرة على إعادتك من حيث خرجتِ.. كما تزعم.

ترتجف أطرافي وأشتم رائحة مزابل حول أنفي

لعل هذا الشعور وحده يجلب لي التقيؤ والخوف.. فكيف إذا التقيت بها!

أشد على خاصرتي وأحضن نفسي وكعادة الوجع والعجز ألتف على نفسي أحاول النوم لعل الحلم يكشف لي عن طرف وجهها وليس كاملاً..

تربت ميلا على كتفي لتهمس لي أن قد حان وقت العودة الواقع سيأتي بها كاملة على أي حال.

أقف مستندة على الهواء.. صار كل شيء صالحاً لكل شيء.. ما عاد هناك ما يستحق جمعه قبل الرحيل كعادة المسافر الذي يجمع كل الصور ويدسها بحقيبته ويفتحها كلما جن جنون اشتياقه.. كالغائب الذي اختار الغياب.. يبحث بين أوراقه عن ما يستدل به الغير... يتيقن أنه ترك ورقة أخيرة وهو يعي جيداً أن لا أحد سيقرؤها..

كالطالب الذي ابتلع كتابه دون أن يعي لماذا اغتص بكل هذه الحروف رغماً عنه.. ليفرغها بأول ورقة بيضاء صالحة للكتابة.. يكتب وهو يتعثر وهو يركض وهو لا يتنفس.. يحاول فقط ملأها وربما ينسى أن يكتب اسمه..

أقف وكل شيء حولي مستند لشيء آخر ليقف.. السرير على قواعد خشبية.. والكرسي على أقدام خشبية وخزانة الملابس الفارغة على قواعد خشبية أيضاً.. أشتم رائحة ماجد.. ألم أقل لكم إن رائحة الخشب تذكرني به..!

أنظر لميلا بنصف عين ونصف رغبة.. بخوف ممتلئ وبكاء مرتجف.. بصدق بنية الرحيل وكذب بالقدرة على هذا.

وكأي شخص محكوم عليه بالموت.. له الحق أن يترك وصيته.. وله الحق أن يكتبها على مهل.. لم تكن رغبتي أن أكتب شيئاً.. بل كانت أن تفعل هذا بنفسها.. أن تعانق كل الجدران.. كل الممرات.. كل الغرف.. حتى شجرة السدر التي أخافها.. حتى جوزالين التي طالما

أفزعتني.. حتى القط الذي أهرب منه كلما نفخ بوجهي.. أريد أن أحتضن كل من لا حيلة له..

وربما أفكر أن أودع أمي بعد أن مر عام على وفاتي.. وأطلب من والدي أن يدعو لي بعد أن انقطعت أعمالي.. وأطلب من أمل أن تسمي ابنتها نجد لعل بهذه الحيلة يقترن اسمي بماجد وأموت بسلام.. ولعل فيصل يذكرني ويرحمني الله عندما أمر بذاكرته النقية..

ها أنا أموت مجدداً..

موجعٌ أن تموت مرتين.. وأتمنى أن تكون الأخيرة..!

يحدث كثيراً

أنك تود الكتابة هروباً من البكاء

لكنك تجد نفسك تكتب لتبكي..!

عالقة أنا بحنجرة الكبرياء

لا طاقة لي بحرف ولا طاقة لي ببكاء

أحتاج فضاء واسعاً لا لأصرخ

وإنما لأزرعني هناك وأنتظر المطر..!

▌ إنها زوبعة..

عجوز الحي التي تتبعها قطتها السوداء (أسيس)..

يقال إن أسيس هذه ابنة لها أصابتها لعنة والدتها حينما غضبت منها يوماً وتمنت لو تكون قطة لأنها تعيش حياتهم وتموء كلما أرادت شيئاً.. تحولت لقطة صامتة تموء كلما شاهدتني أظن أنها تتمنى الصحبة وأني صالحة لأتحول لقطة مرقطة

زوبعة أمامي الآن لتربت على قلبي بمطرقة الموت.. لتخبرني عن شروط الالتحاق مجدداً بعالم القبور.. أقف على ساق واحدة مبتلة بماء خرج لا إرادياً ربما أنا خجلة أن أقول إني مبتلة كطفل رضيع بيد أني تبللت بالخوف والرهبة ويداي متشبثتان بصدري.. أضم قلبي وأدعو لا أعرف من أدعو لكن لا إله إلا هو خالق الإنس والجن.. ليخلصني من ما يحدث لي.

أنا هنا بمنزل كبير يستقبلك ذباب كبير يطير فوق رأسك لا أستطيع وصف حجمه فلم أجرؤ على رفع رأسي بعد، لكني صفعت إحداهما بيدي عندما حاولت إبعادها لتصطدم بالحائط وتسقط، كل هذا الذباب يحاول أن يثأر ربما قتلت فتاة أحلامهم دون قصد، للمنزل رائحة تشبه رائحة حريق وسائد محشوة بالقش العتيق. تجعلك تغص بالهواء وتكح بصوت عال ليتردد صداك سريعاً وتتقافز لك رؤوسٌ لا تعرف من أين خرجت.. وجوه شابة ورجال ونساء جميعهم يشبهون ميلا.. ببشرة بيضاء جدّاً بدون دماء وشعور متدلية على وجوههم وقامة منحنية وأرجل منفرجة بخطواتها.. جميعهم يلوحون لي.. لم أعد أفرق هل هو ترحيب أم إنذار بالهروب.. لم أميز وجوههم بعضها عن بعض وكأنهم جميعاً ولدوا من رحم واحدة.. تجمعهم الخيبة والحزن والخوف.

والانكسار والرعشة وربما الجوع أيضاً..

الوصول لهنا كلفني أنا وميلا يومين.. تركتني عند منتصف الطريق ومعي علامات دلالية كل واحدة منها تجعلني أبكي قبل الوصول لها..

لم يشعر أحد بعبوري سوى القطط التي تصيح مواء والكلاب الضالة تنبح بصوت متقطع كلما مررت من جانبها، وكأنها تشتم رائحة جثة شهية للالتهام لكنها لا تتبعني ربما تعرف أني سأقع بحفرة ما.. أغرق وأختنق.. بعيداً عن الحي الذي أسكنه والحي المجاور والذي يليه.. فقط كنت أخشى العبور أمام جارنا أبي عبد الله والذي اعتاد أن يأخذ أخي فيصل معه.. بالطريق الذي تعبره سيارات كبيرة وكثيرة هكذا كان فيصل يحكي لي عما يثيره ويعجبه في رحلته الأسبوعية مع العم أبي عبد الله .. للتو أعرف أن مرور الحافلات الكبيرة له القدرة على أن يعلمك الكثير بصوت صراخها حينما تتجاوزك وانطلاقها بخفة رغم ضخامة حجمها.. كل ماعليك أن تصم أذنيك وستمضي.

الطريق لا ينتهي.. لكن بالنهاية تصل لتقف وتنزل حمولتها وتعاود الكرة مرة أخرى لتصرخ من جانبك وتفرغ حمولتها بعيداً عنك هي تشبهنا بالغضب.. كنت أتمنى أن أتعلق بنهايتها.. لكن خفت أن تسحقني العجلات الكبيرة دون أن أترك آثاراً أن أحدهم قد مات للمرة الثانية ولا يزال يمضي نحو قبره.

كنت أمشي بمنتصف الطريق تخترقني السيارات المسرعة وتقذف بي مرة أخرى وبكل مرة أنفض ما علق بي من تراب ليس لأبدو أنيقة ولكن رائحة تستعجل قدومي.. أمضي نحو النهاية التي اخترتها.. كمن يتمشى فوق جسرٍ تحته نهر جارٍ وينتظر من يبتسم له قبل أن يسقط منه انتحاراً.. كمن ترك رسالة قبل موته كتب فيها هذا الجريان بداخلي لن يتوقف أخيراً وجدت الطريقة)... كنت أقرأ على كل اللوحات التي أمامي (لن ينتهي البؤس أبداً) وهي آخر جملة في رسالة الفنان الهولندي فان جوخ

هل تشعر بهذا..؟ أم أن هذيان خوفي يبالغ كثيراً وعلي التوقف!

وصلت..

هذه الكلمة لا تعني الوصول الحقيقي ولكنها بداية لنهاية أخرى لها تفاصيل يشوبها الكثير من الأحداث التي ستحصل أتحسس صدري وأنا أبحث عن هواء أبتلعه غير هذه الرائحة النتنة..

أمام غرفة زوبعة بنت دنهش أنتظر الدخول..

لغرفتها بابٌ خشبي طويل له أكف من خشب متدلية يخيل إلي أن أحدهم حاول الهروب وأصابته لعنة الخشب وظل عالقاً له زمجرة تقتلع القلب حينما يفتح لتخرج منه امرأة قصيرة ذات بطن مستديرة تلف حجاباً بلونين الأسود والأسود هكذا نرى تفاوت الألوان حينما نخاف وربما لم يكن أسودا من الأساس..

تمضغ عوداً طويلاً من الخشب بين أسنانها المنفرجة هي بالتأكيد تحاول سد هذه الفراغات لها أقدام منتفخة أظن أن لديها أكثر من خمسة أصابع بالرجل الواحدة.. عرفت هذا لأنها عاودت الكرة عشرات المرات وهي تغدو وتذهب من أمامي لتختار من يدخل على زوبعة وتنظم الصفوف..

أنا لم أجرؤ على عد أصابعها أنا فقط كنت أدعو أن تتعثر بأحدهم ويتأخر وقت دخولي على العجوز زوبعة

من يدخل الغرفة لايسمع له صراخ ولا يخرج منها

أسأل نفسي هل هناك باب آخر للمقبرة مباشرة أم أنها تكفلت بدفننا بغرفتها!

لا أحد يخرج أقول لمن هو بجانبي لكنه لا يجيبني ينظر لي وللباب وكأن هناك رسالة علي أن أفهمها قبل الدخول.. كنت أحاول أن أتهجأ عينيه لكن.. قشعريرة تلبستني.

ها هي القصيرة تمسك بي من كتفي وتشد ثوبي وتنفضه لتأمرني بالدخول.. أنظر لعينيه وكأني أقول له هات الرسالة كلها

ثم أرفع رأسي للسماء ما قبل السقف هناك وجه معلق دائماً

أمي

أحتاجك الآن..

▌ عند الباب الطويل الذي يفتح لي الآن.. ومابين المقابض والأكف الحديدية المتدلية عبارة مكتوب به (صافحني إنها النهاية).

عرفت ماذا تعني نظرات هذا الشاب ولماذا كان يدس يديه ويترك أكمامه خالية وكأنه يخاف المصافحة لا النهاية التي أختارها

عرفت أنك تحتاج لشجاعة القرار والمصافحة تعني التراضي.. شجاعة الموت لا تعني الانتحار ولكن تذكرك بما أنت عليه

أنك ميت على قيد الحياة وأن كل الأبواب مغلقة بوجهك.. ابدأ بالتصالح معها لتفتح.. واختر نهاية تليق بك.

على سجادة مدورة تتوسط غرفة مليئة بالمرايا المغطاة بالشراشف الصفراء والكثير من الصناديق الخشبيه عليها أقفال تفوق أعمارنا الصدأ يأكلها ولاتزال مطبقة على تلك الصناديق.. لقد تثاءب صندوق هناك وآخر يحاول أن يزيح آخر من فوقه كان شجارهم بلا

صوت وكأن الخوف من زوبعة يسيطر على كل الأشياء وأنا.. نعم أنا من الأشياء هذه كلها الآن.

تقطع سهوي المرتجف..

- من هنا

تقولها زوبعة وهي مستديرة بوجهها.

فقط أكتاف منحنية وظهر طويل وثوب منكمش يخيل إلي أن له زمناً لم يغسل وذبابة تقف على كتفها ربما ستشي لها بجريمتي..

أتدارك هذا لأقول بصوت عال:

- أنا نجد حمد

- نجد ابنة منى.. تقول لي زوبعة

لم أجرؤ على السؤال

صمت لتكمل..

ستعودين بلا وثيقة أنت لأمك إذاً.. بالمناسبة إنها تجيد الطبخ

أسكت أنا..

تواصل هي..

كثيرة السجود ووالدك يطيل بمحرابه الوقوف

هذه الفعلة التي طالما جعلتني أنفر من بيتكم لكن أعود حينما أجوع فقط..

ترفع يديها لتأمر الذبابه بالطيران والخروج

- وأنت. يا نجد أين أنتِ منهما؟

متذبذبة كمثل الذي يريد أن يصل وينتظر أحداً آخر يفعل هذا بدلاً عنه؟

ما بين سجود والدتك ومحراب والدك تتأرجحين لا سقوط دائماً ولاهدوء تاماً.. النوايا لا تنقذك الآن!

.. لقد كانت قطتي (أسيس) تلتف حولك لأنها تعرفك جيداً أنا أبحث عن جسد أعيد له ابنتي وأظن أنك مناسبة جدّاً، لهذا ستعود روحك للقبر ويبقى جسدك هنا. أسيس تعرف أنك ستعودين إلينا لهذا البيت الكبير المتهاوي الأطراف الشاحب بضحاياه بكل من خرج من قبره ومات مرة أخرى يظل عالقاً خوفاً من العودة للقبر.. العودة التي تكلف الكثير ولا تعرف متى تنتهي .. كنت كلما نفضت جسداً وجدت ركعات عالقة به فأتركه.. وأجمع غيره بلا هواده فكل هذه الأجساد ضحايا أنفسهم وليس لي بوصولها هنا أي حيلة.

كل من هم هنا.. هم اختاروا أن يكونوا معلقين جثثاً هائمة

ستعودين للقبر الآن روحاً وننتزع جسدك لأسيس.

ثم التفت بكامل وجهها الذي جعلني أتعثر بالحارس القصير الذي

يقف خلفي مباشرة..!

قالت بصوت يخرج من أقصى الحنجرة ويتضخم شيئاً فشيئاً قبل أن يتحول لصراخ..

لتنادي:

- الشجاع الأقرع خذها..

وعد لي بجسدها فقط.

«الألم ثمرة.. والله لا يضع ثماراً على غصن ضعيف

لا يقدر على حملها».

فيكتور هوجو

هذه هي الخطة ياء والأخيرة لقد كنت أتهجأ كل السبع والعشرين التي فشلت للخلاص.. مستسلمة للنهاية.

وكأني نجوت من الحياة بأعجوبة.. أشعر ببرودة هذا الثعبان وهو يتسلق ذراعي الأيسر وربما قد غرز نابه بكف يدي..

سمه بارد كجسده.. أنتظر الموت بهدوء.. لكن رغبة الصراخ تخنقني.. وكأن آخر شيء أزاوله بإنسانيتي هو أن أحاول الهرب لأشعر أني واجهت الموت بشرف وليس بجبن.

ربما لم أحصل على الحياة التي حظي بها الجميع ولكن لا بد أن أحظى بالموت الذي يشبههم.. أن تكون بوسطهم جميعاً

تلفظ آخر نظراتك وتجمع آخر أنفاسك من بين أعينهم وهي ترقبك بالدمع..

أن ينصت الجميع للهواء الذي سيخرج من فمك الآن.. حتى وإن كان شتيمة لأحدهم كقصاص أخير

أن يمسك الجميع بيدك ويفرك بها وعندما يرخيها الموت تنفلت أياديهم ولم تتكلف عناء إيصالك للقبر.

أن يدثروك بالغطاء حينما ترجفك سكرة الموت ويتبقى وجهك فقط وكأنهم يوصلونه لك بالمجان، كل ما عليك أن ترفع عينيك للسماء تتبع روحك ليدثر وجهك أيضاً ويبدأ البكاء كمثل آخر مسلسل شاهدته عندما تمسح الجدران بالظهور وتضرب الوجوه بالكفوف ويبدأ العويل..

لا أذكر آخر جنازة حضرتها.. ولم أشاهد واقعها سوى ما لقنتنا إياه هذه المسلسلات..

يحق لي أن أكون شاهد عيان الآن

يحق لي أن أموت كما يموت الجميع

لم أملك الخيار للقدوم لعالمكم وربما أملك خيار الرحيل وليس الانتحار

الموت بعد الموت بؤس لا ينتهي..

أحتاج أن أصرخ الآن..

وصرخت أنا وشبحي

صرخت بصوت ميلا وكل من نفضتهم القبور

صرخت لأعلن عجزي ووجودي أيضاً

صرخت بدون أسماء ولا مسميات بدون ذاكرة ولا ذكرى

صرخت لأرفع رأسي وهذا الشجاع الأقرع يحاول أن يدخلني للقبر وهو يلتف حول ذراعي كعناق مسموم

رفعت رأسي ونصف جسدي وأنا أنتفض..

فتحت عينيّ وإذا بأمي تهرع لي لتحضنني وهي تبكي

هل قلت تحضنني؟

هل سمعت صوت عوائي أو سمعته على هيئة نباح أم إنها خرجت لتبحث عني بين أهل المقابر وتعلمت لغتهم ونسيت لغتها الأصلية

أم إنها ماتت لتتمكن من لقائي ربما الحنين يفعل هذا بعد نوبة من البكاء والاحتضان الذي انخرطت به أمي.

كنت أنظر للمكان الذي حملني فجأة وجاء بي إليه، إنها غرفة صغيرة تحيط بها ستائر بيض بسرير يتوسطها وجهاز يصدر صوت

قلبي الذي استلقى خارجاً عني ها هو ينبض بداخله..

أنبوب معلق فوق رأسي وسلك أبيض مجوف يحوي الماء على ما أظن موصولٌ بإبرة بكف يدي ربما هذا هو الثعبان الذي غرس نابه بهذه الإبرة.

تأخذ أمي هدنة من البكاء لتمسك بأطراف وجهي لتقول:

- لقد عدت يا نجد

أنظر لها بصمت يصرخ

- سنة كاملة بعد سنة! سنة يا الله!

تصرخ أمي وهي تقولها.

أزفر الضحكة نفسها والقهقهة ذاتها بالصباح الذي وجدت نفسي به بالقبر

لأسألها

- من أين عدت؟

ماذا يحدث عندما نخفي الكثير خلف هذا الهدوء

خلف هذا الصمت

خلف الأبواب المشرعة

خلف وجوهنا المبتسمة كلوحة مرسومة كل حاجتنا هي (اللمس)

والاقتراب منها يفسدها

تذكرت رجلاً مسنّاً كان يقف أمام لوحة

وهو يهذب شعره ويبتسم وكأنه يقف أمام المرآة

عرفت حينها أنه يوماً ما كان لوحة بحاجة للمس

نحتاج أن نحيا خارج الإطار

أن نقترب أيضاً من الوجوه الصامتة

ها أنا أرفع يدي أحاول الخروج

من سيخرج معي..؟

ما عدت شبحاً.. أنا إنسان حقيقي

نصيحتي لك

اركض الآن..!

لم تعيشي المأساة وحدك..

هكذا ختمت أمي حكايتي.. بالغيبوبة التي دخلت بها بظهيرة يوم زفافي بحادث سيارة.. توفي كل من كان معي وكل من كان بالطرف الآخر الجميع مات موتاً حقيقياً وبقيت أنا معلقة ربما لأهبهم الدعاء وأحكي للجميع قصة رحيلهم.

لقد مات من هم معي نعم ماتت جوزالين.. و.. موجع أن أخبركم أنه قد مات بطل حكايتكم وبطل أحلامي والحب الذي ركضت إليه واستمتُّ للمحافظة عليه..

ماجد

ونقطة آخر السطر

وسطر جديد

وأتجاوز سطر ما بين السطور

أحتاج صفحة من عمر لأكتبه..

أحتاج نهاية تنتهي بي وليس به

الرجل الذي أحببته بغيرتي وتملكي وجنوني

الحب الطاهر الذي لا يعرف لغة الجسد بعد..

الحب الذي غفا فوق رسالة وملاحظة صوتية..

الحب الذي علقت بحنجرته وتشبث بكل الكلمات التي تخصه وحده

الحب الذي أعلن رحيله من حياتي دون أن أقرر هذا

وجعلني أواجه مصيراً مفتوحاً ينتهي دائماً بعينيه وصوته

الحب الذي لم أشهد موته ولكن زرعت ياسمينة على قبره

ليس لأنه مات ولكن لأقنع العابرين أني فعلت هذا ونسيته

من قال إن النساء لا يخلصن بالحب

أقسم أني نذرت روحي له

لحين الموت الذي لن يشهده ولن يزرع ياسمينة كما فعلت..

أحتاج أن أخبركم أولاً

أني أحبه

ولتشهد أرواح العاشقين على هذا..

عام كاملٌ عاشه شبحي كحلم.. يتجول بالمنزل وتكشف له الحقائق كل سوء الظن الذي خلقته لنفسي..

عامٌ كفيل أن يعلمني كيف أتجاوز ضعفي بالصلاة والتقرب لله وأنه وحده القادر على تخليصي من هذا..

عامٌ كاملٌ واجهت به كل مخاوفي وقلقي.. وها أنا أكتب لكم وأنا أتكئ على شجرة السدر ولا أخافها،

وبجانبي أختي أمل التي ستتزوج قريباً من رجل أحبته دون أن يتدخل أحد بهذا.. لقد توظفت وانشغلت بالعمل وبالحب أيضاً عن مواقع التواصل..

أصبح وجودها أنيقاً هادئاً.. ربما الحب يهذب.. أقولها وأنا أبتسم لها ولم أسألها بعد عن حقيقة الصورة

أود أن تحتفظ بسرها وربما خيالي فعل لي هذا..

أمل

الأخت التي لم تشاركني رحم أمي

لكن الآن تشاركني النبض

أن تفعل هذا.. يعني أنك استطعت أن تتجاوز كل حماقاتك التي لم تشعر بها يوماً

تظل الأخت هي المرآة التي لا يمل التحديق بها

والصديقة التي تصفعها بغضب وتعاود تحتضنها بحب وباللحظة نفسها

تشاركك كل جنونك وانفعالاتك وحتى كذبك وخوفك وطفولتك

الأخت التي تقاسمك روحك هي هبة ربانية

والمحافظة عليها أمر يحتاج لنظرة حب لا أكثر

أحسنوا النوايا.. وإياكم أن تمس الأخوة..

توفيت جوزالين إذاً ربما لهذا رفعت رأسها لي وتبسمت عندما كنت أرقبها من نافذة غرفتي.. هل تذكرون رعبي حينها حينما أخبرتكم كيف كانت تنظر لعيني؟

أنا أصدق كل هذا..

أصدق وجود الأشباح وأنتظر عودة ميلا وسوف أنتظرها حتماً.. أحفظ جيداً رائحتها أَعِد أن أخبر سارة أن والدتك بخير وجميلة سأكفر عن كل ما سببته بحقك يا ميلا لا أعرف هل الأشباح ستغفر يوماً ما.؟

ربما ستكون أنت شبح الغد وربما يجلس بجانبك شبح لميت منذ أعوام.

لا تخف

نعم اذكر الله الآن.. رغم أن الذكر لا يرعبهم بل يطمئنهم.

صوت خطبة يوم الجمعة يعلو المنبر الآن..

وأنا هنا بحوش منزلنا لقد شُفيت تماماً غير أني أحتاج لأشهر حتى أستطيع استخدام أقدامي كما كنت فهذا العام من النوم قد أثر عليها سلباً، لا بأس أقلها هي مرئية الآن أبتسم وأشتم رائحة كعكة القرفة التي اعتادت أمي أن تجهزها أتكئ على شجرة السدر ألم أقل لكم تجاوزت مخاوفي؟

أستمع بإنصات لكل حروف الذكر وأخشع عند كل آية تصدح من هذا المنبر، أرقب الباب الذي تركه والدي خلفه مفتوحاً بمقدار إصبع لا حاجة لإغلاقه..

أعاود النظر للسماء وأستنشق كل ما جاءت به بهوائها وطيرها وحتى الأصوات التي تخالط كل هذا

أغمض عيني وأغفو

لأشعر بظل يحجب الشمس عني..

أقول إنه والدي كعادته يأمرني بالدخول يخاف أن يبتلعني قدر آخر ويغيبني عن ناظره عاماً آخر

أقول وأنا مغمضة

عرفتك يا والدي سوف أدخل الآن..

وأبتسم لهذا الحب الذي صار علناً

ثم صمت

والظل واقف لا يزال وكأنه يصر أن يحجب عين الشمس عني.

أفتح عيني.

وإذا العجوز التي كانت تزورنا ربما حان موعد زيارتها مغطاة بالأسود

لابأس.

ربما تود السلام علي لتبدي اشتياقها أمد لها يدي وابتسم..

تمسك بيدي وتكشف بيدها الآخرى عن وجهها ببطء وتنظر لي بابتسامة فاغرة..

تمد لي شفتيها بقبلة وتغمز بطرف عينها بمكر

إنها زوبعة!

هل قلت زوبعة؟

نعم هي زوبعة

أفض يدي دون أن أعدها بشطائر سكر كما كنت أفعل

صارت أقدامي صالحة للاستعمال الآن

بفزع أركض

هيا اركضوا أنتم أيضاً..

تم بحمد الله أكتبها وأنا أرتجف كاعتراف لتتمة جنوني

الرسالة واضحة بركض الخائفين

ربما كانت مغلفة بالرعب والخيال الرطب لكن أثق أن هناك

الكثير ممن يشاركني الجنون ذاته وسيجدها

إذا كنت منهم إذاً أخبرني برأيك هنا

Jo_alremal@hotmail. com

هَلْ جَرَّبْتَ أَنْ تَرْكُضَ وَ قَدَماكَ
مُعَلَّقتانِ بِالسَّماءِ ؟
أَنْ تَرْكُضَ بِمَمَرٍّ ضَيِّقٍ لا يَتَّسِعُ لِكَتِفيك ..
تَخافُ أَنْ تَتَعَثَّرَ بِظِلِّكَ وَ يُرْعِبُكَ
صَوْتُ أَنْفاسِكَ ..
أَنْ تَكونَ شَخْصاً تَحْمِلُ هُوِيَّةَ المَوْتِ
وَ تَسْكُنَ شَبَحَكَ !

هَلْ جَرَّبْتَ . .

رَكضَ الخائِفينْ ؟